
M O H A M M E D A L L A M
محمد علام
البنتُ التي
تغتالُ
الحكايات
قصص

البنتُ التي تغتالُ الحكايات

محمد علام: كاتب من مصر

سنة الإصدار: الطبعة الأولى سنة 2016



دار ميم للنشر، الجزائر
E-mail : mim_edition@hotmail.fr

الإيداع القانوني: السداسي الثاني، 2016
ردمك: ISBN : 978-9947-585-00-0

محمد علام

البنتُ التي تغتالُ الحكايات

مجموعة قصصية



ذات مرة عرض ولدٌ على بنت ما الزواجَ،
فرفضت، فعاش الولدُ سعيدًا إلى الأبد..

مارا تخبز الحياة عند نهر إيتاجي

إهداء إلى محمود درويش..

على هذه الأرض مايستحق الحياة..

لا يُقلق الظلام الكتبَ الرابضة على المكتب، ولا الأوراق والأقلام، ولا جسدي المشرّب بالسمرة، المدفوع بنعومةٍ داخل قميص النوم الأبيض الحريري. في الحقيقة إن الظلام ليس بإمكانه أن يُقلق أحداً على الإطلاق.

يقولون إنني أحس وأنا نائمة إذا ما دخل علي أحد، فتنكمش ابتسامتي، وينعقد حاجباي، ويقولون أحياناً أنني ألفظ باسم الذي تجرأ واقتحم السكون، فيرتعد، ويتراجع على الفور.

وتتكاثر الأساطير حول مارا الجميلة، ولا يسعني -وأنا واقفة في شرفتي الصغيرة المواجهة لنهر إيتاجي تحت الامتداد السماوي اللانهائي، وشعاع شمس خلف السحب البيضاء صعب الزيارة- إلا أن أقول: صباح الخير يا أصدقاء مارا، ألفّ الأفق كله داخل عيني بنظرة سريعة، ولا أجد بداً من أن أقول: تفضلوا على الرحب والسعة، فتسبقني رياح فقط.

قال لي فيليب ذات مرة، ونحن في مطعم في وسط المدينة:

لماذا تنامين بشكل غريب؟ تتشبثين بالغطاء في عنفٍ، وتتصلب قدماك، وتنفر عروقك، ولا يسعني أن أرى منك سوى شعرك المتحلق حول وجهك الصغير.

لم أعرف بماذا أجيبه؟ تشبثت بلحظة صمت، ورحت أداعب خصلة تموجت من شعري بين السبابة والوسطى.

صديقي فيليب: وأنت نائم هل تدري بأنك نائم؟ أنا لا أنام يا فيليب، بل أعيش حياة متواصلة، لي بيت، ومدينة على نهر الفردوس، وحديقة أزهار كبيرة أرعاها كل صباح وأنا عائدة من عملي، لي حياة كاملة، وأصدقاء عديدون.

ارتسمت على وجهه حينها علامات عدم الفهم، والتفت أصابعه حول كأسه، عانقنا الفراغ المنصوب بيني وبينه، توقفت إشفاقا، ودفنت ابتسامتي في كأس الشمبانيا، بينما أفرغ هو كأسه مرة واحدة في حلقه، وصعد إلى ساحة المطعم يصفق ويتلوى داخل أبواق الفالتز.

عندما يبدأ الليل في استعادة رقعته المسلوبة قهراً، وتضيء السماء مصابيحها نجوماً لخطوات اثنين تنحتُ الشاطئ، حينها تستيقظ المدينة كلها في أصابع عازف بيانو، أو في أوتار التشيلو أو في نفخة ناي فرعوني. قد أكون منفرطة على سريري العاجي، ولا أستيقظ إلا عندما تخلد المدينة للسكون. يقول فيليب: إنه ذات مرة -وهو يتمشى على الشاطئ هو وخطيبته ماريانا- رأى أحد الأطفال يتسلل إلى بيتي، صعد سلالم الشرفة في مهارة، ومد أصابعه إلى الباب الزجاجي المفضي إلى غرفتي مباشرة، لكنه رآني وأنا أتقلب في عنف حتى انحسر ثوبي عن أجزاء من جسدي، فتراجع فجأة عن قراره، وركض مذعوراً. «لماذا لا تهتمين بإغلاق الستائر عندما تذهبين للنوم؟».

عزيزتي أندريا: عندما رأيتني آخر مرة ممددة على الشاطئ بقميص النوم الأبيض حافيةً، كنت حينها قد تعرضت لغزو مفاجئ من شعاع قمري مرق بغتةً على الباب الزجاجي، فأيقظ الكتب من غفوتها، وراحت تزمجر، والأوراق تتقافز، والحروف تتداخل، والكلمات تتشابك، استيقظت مفزوعةً أربت على الكتب، هدّأتها، ودفّأت الأوراق بوشاح أزرق ألفه حول رقبتي عندما أخلد للنوم. لاشيء في الغرفة غير الظلام، كنت بجوار الستارة، لمحت طيف نور مرق على الشاطئ، رأيته بعيني، وأنا لا أكذب يا أندريا أنت تعلمين. جذبت المزلاج الزجاجي، وهبطت الدرج، وأخذت أعدو، وأنا لا أرى شيئاً، أتلفت يميناً ويساراً، كانت الخطوات تفقأ عيون الرمل، والهواء يغازل عيني، ويبعثر الشعر في الهواء. أندريا: لقد تبدد كل شيء حولي، واستقر بي الأمر حافيةً على رمال ربوة تكاد تجثم فجأة على المكعبات الخشبية المتناثرة، تكاد تطبق ظلمتها على كل الأضواء المتوهجة في المدينة، تكاد تصد الموج عن المرور مرة أخرى من هنا. ورغماً عني داهمني شعور بالبكاء، بردانة أنا، بردانة وكأنني لن أتدفأ أبدًا، شبكت ذراعي حول كتفي، وتمددت، وأخذت الأفق داخلي.

السماء صافية تماماً، صافية من الغيوم ومن النجوم ومن القمر. صديقاي فيليب وأندريا : تعلمان أن الصداقة شيء ثمين جداً، وكل ما نعيشه لا يساوي شيئاً إذا لم نجد من يبادلونا الحب بطريقة ودودة، ولذلك كان فخراً أن يكون ابناي العزيزان صديقين لي. اليوم أقول لكما اعتنوا بالكتب وبالأوراق جيدًا، حافظا على كلماتي التي تركتها، ولا تدعوا أي شخص ينتهك سريري، أنا سأعود حتمًا. أين سأذهب؟ وهل يسعني عالم غير هذا؟ لكنني فقط أشعر بالنعاس، وأريد أن أكمل

الحلم. نسيت أن أطلب منكم يا أولاد أن تبحثوا عن القمر، وتعيدوه إلى أمه السماء، اطلبوا منه أن يسامحني إن كنت شغلت عنه ببعض الأحلام، فهو صديق جميل، ومارا لا تنسى أبداً أحبابها، ولذلك تركت لكم صورة التقطتها من هنا لإيتاجي وهي لا تزال عذراء في الطبيعة، تقدم كل شيء على الكمال والاسترخاء، إنني لا أضمن محفوظات الذاكرة، قد أكون بعيدة لفترة، ولكنني أعلم أنني سأعود حتماً، القبلات لكم جميعاً، لا تصدقوا إشاعات الطبيب، ولا تصدقوا أي شخص غير الذي يقول إن مارا تحب الحياة، فمارا ليست مريضة بالسرطان.

ميمي

إهداء

إلى ميم(ي) التي نامت، ولما استيقظت ماتت...

لمَ رحلتِ؟

تخترق الشمس نوافذ المنزل الكبير، وتفرش أشعتها الذهبية على أرضية الغرفة وعلى السرير الإسفنجي. تستيقظ (ميمي) في حالة من النشوة والنشاط، تعلم أنها لم تهنأ بالنوم على هذا السرير المريح، صاحبة المنزل وزوجها ليسا موجودين منذ أمس في المنزل. تطفو على شفتيها ابتسامة رقيقة، تفتح الدولاب وتختار من الفساتين ما تشاء، تقلّب يدها الملابس في إعجاب، لكن تتعلق عيناها على الجونلة الحمراء والقميص الأبيض... لطالما أبهرها هذا الزي على جسم المدام سوزي. سترفع شعرها على شكل ذيل حصان، وستغرس قدميها في الحذاء الكريستالي، ستخرج من البيت برغم أن الجونلة الحمراء طويلة قليلاً، وكذلك القميص الأبيض واسع إلى حد ما، لكنها في النهاية ستخرج. ينفتح الباب الحديدي في يدها بكل سلاسة، وبكل سهولة تستقل الباص، ينظر الجميع إليها بكل الانبهـار الممكن... الوجه الخمري والشعر الأسود...

الشفتان النبقتان والعينان المتلألئتان بأفراح الدنيا... تبتسم ابتسامتها الرائعة البريئة، ومعها تبتسم عيناها وكل رقعة في ملامحها... فيغمر الجميع تيار من السعادة يغزو قلوبهم... براءة الدنيا في جسد طفلة.

- سأنزل هنا يا عم.

تقول بصوتها الملائكي في نعومة، ويجيب السائق في دهشة:

- أوامرك يا هانم!

في عينيها السوداوين تستقر عجلة الملاهي الكبيرة... تدخل وابتسامتها تخلب لب العمال الذين يقومون بأعمال الصيانة، يتعجبون من الشكل الملائكي الغاية في النقاء والإشراق، وكذلك من موعد قدومها الغريب في بداية النهار، تتغلغل بين أجساد العمال، فيطغى عبيرها على رائحة عرقهم، تنظر لجميع الألعاب الراقدة في سكون، وتمتد يدها لتملس ظهر السيارة الحمراء... يبدو أنني سأوقظك اليوم يا عزيزتي.

- أنت يا عم!

تأمر العامل أن يشغل لها السيارة، ويستجيب على الفور... تطوف السيارة... وتطوف فرحتها حولها... يتدفق سيل ضحكاتها لمسامع العمال الواقفين في ذهول، تشعر بإحساس غريب عندما تلاحظ نظرات ذلك الشاب الأسمر الأنيق مبتسماً لها، تنتهي من لعبتها، وتهرول بعيداً، تعلم أن الشاب يسير خلفها، لكنها تبتسم ولا تنظر إليه.

عند مدخل الحديقة تشتري باقة رائعة من الورد، وتجري وسط الأطفال تلقيها عليهم، وتطوف بالحديقة مع ضحكاتها، وفجأة... التقت عيناها بعيني الشاب الأسمر، لم تشعر بنفسها، فالتوت قدمها تحتها...

وسقطت، وسقطت فرحتها معها... تمتدّ يد الشاب لها، فتأخذها، وتنهض في دهشة أمامه، يربت بيديه على كتفيها، وتشعر كأن الدنيا تدور من حولها... يقترب من وجهها أكثر فأكثر... يكاد يلتصق بها... تسقط باقة الورد من يدها لتتبعثر على الأرض، ويطيرها الهواء بعيداً.

***

- ماذا هناك؟

تسأل مدام سوزي الشاب الأسمر الذي يحدق في المرآة التي على الكوميدينو بغرابة شديدة...

- أعتقد أن بها شرخاً ما؟!

- دعك منها الآن... فأمامنا الكثير من الأمور.

يغادران تاركي المرآة ترقد في ألم... تبكي من جرحها... ستصرخ، لكن لن يسمعها أحد... ولو سمعها أحد سيكون أقل ما تفعله بها مدام سوزي هو أن تهشمها كما فعلت بالتي قبلها!

الفَضَاء يُنبِتُ زُهورًا

خرج من الغرفـة متهالكاً متهاوياً أمام ظلـه، حين شق السكون صوت: لا إله إلا الله، توفي إلى رحمة الله... وضع رأسه تحت الحنفية، أغمض عينيه، وانتظر... فقط قطرة مترنحة سقطت على رأسه سقوط المطرقة على الحديد، وكالشرر تطايرت الذكريات أمامه، والمواقف العابرة، والتفاصيل الصغيرة...

حاول كثيراً أن يكف عن اختبائه وراء الباب وبين المقاعد وتحت الأغطية وأحياناً تحت السرير، حاول كثيراً ألا يكون مجرد زر في مصباح أو في ريموت كنترول، وللأسف فشل أن يكون غير ذلك...

نشأ كالبذرة في الأرض، لم يكن ليغادرها أبداً، يتغذى سمعه على الموسيقا، وبصره على الزهور التي تنمو وسط الأشجار، ينام على حكايات الطير المهاجر من بلد إلى بلد، ولأن الأب أراد أن يحميه من الأسى الذي يغلّف العالم، حرمه الخطو خارج المنطقة، أراد ألا تتسلل إلى نفسه أي ذرة حزن، ولذلك لم يسمح للتعساء بالاقتراب من المدينة الصغيرة.

وفي يوم ما تسلل الولد سراً، وفي الخارج رأى رجلاً محني الظهر بسنوات عمره، فلما سأل، أجابه شخص في لامبالاة: إنه عجوز! في المرة الثانية رأى شخصاً مريضاً، فعرف عن المرض، وعاد إلى أسرته الصغيرة غارقاً في تأملاته مثقلاً بالهموم، وفي المرة التي رأى جنازةً لم يكن قد

أُخبر عن الموت من قبل، حينها لم يعد إلى قصره، بل قرر أن يغادر إلى البرية، ففي جلسته تحت أشجار التين وتحمله أقسى الآلام والجوع لم يكن ليتوقف عن التفكير في طبيعة العالم، وفي ما إذا كانت كل الأشياء فعلاً متحدة المصدر، كان يفكر في الحزن والألم، في الشيخوخة والمرض، في الجـوع والفقر، كان يرى أنه إذا استطعنا التوقف عن الرغبة في كل الأشياء الجميلة المفرحة في الحياة، إذا تعلمنا كيف نتحكم في طمعنا في السعادة، فإننا لن نشعر بالتعاسة أبداً إذا ما فشلنا في الحصول على ما نريد كما يحدث غالباً، سنتوقف تلقائياً عن الشعور بالتعاسة، وسيزول الألم إذا زالت الشهية.

نظر إلى السماء، وراقب الشمس تطل من خلف تلال السحب، تبددها وتفتتها إلى نتف، أغمض عينيه، لكن أشعة الشمس تخترقه، تمر إليه بلا أدنى تعب، تغمر كل تجاويفه، وتجعله يصدق أن الشمس موجودة، كل ظلام يبدده ضوء، فكل ظلام بالداخل حتماً خارجه مظلم، شعر بغروب الشمس، ولما فتح عينيه...

بكى...

بكى لأن الفضاء مظلم!

صديقي:

أن تشعر أنك صاحب أسرار، ذلك لا يعني أنك سر في حد ذاته، الأسرار التي بحوذتك هي غالباً لاتخصك، مما يعني أن السر الذي يخصك هو حتماً في مكان ما، هناك... في مكان ما، فاذهب ولا تتكاسل...

أسلم نفسه لها، ولما تمددت أمامه متدثرة بعريها، أغمض عينيه، وترك الأصابع تتلمس طريقها، والأنف يلتقط من ثنياها ذلك السمو الرفيع الأعلى قدسية على الإطلاق، تأملها تأمل الكهنة حول آلهتهم،

شعر بأنفاس هذا الوجود الأعلى يحملهما بعيداً، كأن قطعة من الأرض انفصلت، وحطت على إحدى الغيمتين، كأن الأشجار تتطاول، وتتشابك فوقيهما، والشمس تشرق من بين تلال الأفق البعيدة، تفرش خيوطها على جسديهما باستحياء، شعر بالحياة وشعر بالموت، كأنه في كل مكان، كما ذرة ملح لامست الماء فذابت ملوحتها فيه حتى آخر قطرة، كأنه في كل زمان، وما الوقت إلا عبث، كأنه في كل تنوعات الطبيعة وفي كل تحولاتها..

– مبدعون نحن البشر في إيجاد ما يحزننا..

قالها القسيس للولد الذي جاء إليه يشكوه نبأ البنت التي نادته من جزيرته في القطب الجنوبي إلى نقطة ما في منتصف العالم، أدخلته محرابها، ولما تمددت أمامه، حدثها عن نظرية الأكوان المتوازية لأينشتاين، وحدثته عن عالم آخر، لايمكن الوصول إليه إلا عبر ممر ضيق، لا أحد يستطيع المرور خلاله إلا بإذنها هي، أذعن لها... ولما كشفت له عن السر.. بكى:

إنا عرضنا الأمانة على الأرض والسماء فأبين أن يحملنها.. وحملتها أنت.. أنت وحدك..

فبكى..

وظل يبكي حتى امتصت الأرض دموعه..

بعد أن امتصته الدموع...

البنتُ التي تغتال الحكايات

كَحَيٍّ لا يموت دائماً أطفأ النور، وأغلق الباب، وحبس خلفه ملايين اللعنات التي تطارده طوال النهار...

من مكتبه في الشركة إلى مقعد القيادة، يتركه ويركض هلعاً... إلى أين يذهب؟ في الشارع تنتظره هناك على مقاعد الطريق العامة، في الحديقة تحت أشجار السرو والسنديان تتمدد في انتظاره، في المطعم، فوق المآذن وتحت أسطح المنازل، كانت تجيد الاختباء والترصد لاقتحامه، كادت أن تفتك به...

على جانب الطريق ترقد السيارة في لونها الزهري، وباب القيادة مفتوح على آخره، تومض وميضاً أصفر يبدد شمل الظلام لثانية ويعيده، كان الرجال وقبلهم النساء يمرون جوارها -السيارة- فيرمقونها من أعلى لأسفل ثم ينظرون لأزواجهم في ابتسامةٍ تصطنع عدم الاكتراث، رغم أنه من أعلى برج في الحي قد يصاب الرجل الذي يراقب ذلك كله من خلف منظاره المعظّم بالملل، أو بالفعل قد شعر بذلك، فاتخذ مقعدًا قريبًا، مدد قدميه على سور الشرفة، وراح يقرأ حكاية جديدة لا تحتوي بين طياتها البنت التي احتضنت الفتى عند النهر فمات (حبًا)، ولا الطفل الذي كان يقاوم الليل والفضول يحترق تحت جفنيه لأن يفتح عيناً يرى

بها أمه تتقلب جواره متأوهةً، دون أن يستطيع رؤية ذلك الرجل الذي تسلل في ليلة كان القمر فيها محاقًا وكان الأب غائبًا عن البيت. سيقرأ حكاية جديدة من نوعها لن يرى فيها ذلك الفتى الذي يتمدد على ظهره في عدسة المنظار، يشير والسيجارة بين إصبعيه إلى السماء، وعلى ملامحه ابتسامة المنتصر...

«في عصر ما من عصور الجنون التي مرت على البلاد مرّ الحاكم ذات يوم على أسرة كانت تفترش الخلاء لها، مكونة من أب وأم وولدين وبنتين، إحداهما كانت تبيع الملوخية في السوق، وفي ذلك اليوم طبخت بعضاً منها لأسرتها، فلما رأى الحاكم ذلك أمر بإلقاء القبض على الأب والولدين وجلدهم ثلاثة أيام، ثم علق رؤوسهم على المشانق، بكت الأم، لطمت بنتها، وعاهدتها على ألا تبيع الملوخية ثانيةً، ولا تقرّبها من الدار، وافقت البنت، وحافظت على عهدها طوال سنوات كبرت فيها، وأنجبت من الأولاد خمسةً، سألها أصغرهم ذات يوم: يا أماه كيف يكون طعم هذه التي يدعونها الناس بالملوخية؟ فبكت الأم في داخلها، وقررت أن تطبخ له طعامًا يشابه في هيئته الملوخية كي لا تخسر عهدها مع أمها، وأكل الولد، واستمتع، ولم يعرف أحد حتى اليوم ما طبخته هذه الأم لصغيرها، إلى أن ماتت، فبكى الولد كثيرًا، ولما كبر ظل فقط يحلم بأن يتذوق ملوخيةً كالتي طبختها له أمه عندما كان صغيرًا...».

سيقرأ أشياء كهذه تسلي وحدته، وتأخذه نحو النهر، ينتظر بنتًا لعلها تمر من هناك مصادفةً، فتقبله، ويعانقها، يجلس جوارها، كلما حاول أن يخبرها سرًا اكتشفه للتو تقبله في فمه، فتنحشر الأسرار في حلقه، وتسقط في معدته إلى الأبد، سيطير إلى بلاد الرافدين والسند والصين، ويعشق قوقازية يسجد في محرابها ليل نهار، سيقرأ التاريخ كله من بدايته حتى

يملّ القراءة، فينام أو يموت قبل أن يصل لنهاية رقيقة... لولد كان يحلم دائمًا بامتلاك زرافة في غرفته، وعندما لم يستطع ذلك خطف غزالة شريدة في الملكوت في لحظة تربص، ربطها إلى جوار الشرفة، وتربّع أمامها يحكي لها عن بنت... عرفها يوماً ما، كانت تُفتن دومًا باغتيال الحكايات...

قاهرة في رقة الدانتيلا

- المُحَاصَر -

نشب الشجار كـالعادة، واشتعلت الحناجر بالصراخ، العيون بالصراخ، الأيدي بالصراخ... في شهر أغسطس تأبى كل الحيوانات أن تعود أدراجها، والأحزان أيضاً، حتى لايظل لعيدي التاسع مكان، فيتقهقر بسلام، ويحتل (مرتبة الذكرى الأليمة) ركناً في أرض الذكريات.

انفرطت أمي في البكاء، وارتكنت إلى زاوية في الجدار، تدفن رأسها بين ركبتيها، ينسدل شعرها ليخبئ عينيها، ويتدلى طرف ردائها على ساقين موسومتين بالكدمات والجروح، اقتربت منها أربت على ظهرها بكفي الصغيرة، عَلَّه يكون لخمسة أصابع دقيقة مفعول السحر في أن توقظ ما تبقى من الراحة ورواسب فرحة كانت تتلألأ دوماً على شفتيها، كنت أود أن أقول لها فلتخرجي من ذلك يا لئيمة، ولتأخذيني، فتحمميني، وتبدلي ملابسي، وتصففي شعري، وتهديني قبلتك وحلوياتك، قرّبتُ يدها من صدري الصغير، من فمي الدقيق، فتدلت يدها مني عن غير قصد، وانسحبت ملتفةً حول ساقيها كما كانت دون أي صوت.

جرني أبي داخل غرفتي، وفجأة كان الدولاب يقذف بها في جوفه داخل حقيبتنا السوداء الكبيرة، وحُشرت حشراً داخل ملابسي، ودُفعت دون أن أقول لأمي بأنني ذاهب مع أبي إلى... أين نذهب يا بابا؟ وصفق الباب خلفنا.

نهار متوهج بالعرق وروث البهائم وانشغالات البشر، وكأن أبي أراد أن يريني الشمس في أعنف أوقاتها، لأكرهها طوال حياتي، فلا مقارنة بين حنو الظلام ووهج الشمس. خرجنا من الحارة دون أن يهتم أحد لخروجنا، ودخلنا حارة أخرى دون أن يهتم أحد أيضاً لدخولنا، الناس المتشبثون بورشاتهم وعربات الفول لا يجدون الوقت كي يركزوا نظرهم مع الداخلين والخارجين، لكن الذين يتحلقون حول كراسي القهوة المبعثرة في الطريق كركام الزلط يروننا، وما يلبثون أن يتقوّلوا علينا، يهمسون، ويثرثرون بصوت عال، ويضحكون ضحكات شريرة تشبه ذلك الوحش الذي دائماً ما يغلبه سبايدرمان. صعدنا بناية متشققة الجدران على وشك أن تلفظ ما بداخلها من أكوام اللحم المتعجّنة داخل العلب الحجرية الصغيرة، والمتصارعة أمام المرحاض الوحيد الذي يخدم عشرين شخصاً أو أقلَّ في آن واحد. ألقاني في إحدى زوايا الحجرة، وأغلق الباب عليَّ، وأطبق الظلام. رحت أتابعه من خلال فراغات ضيقة من حديد النافذة، أحرك عينيَّ لتفادي الاصطدام المباشر بأوراق السيسبان التي تضلل على البناية المقابلة، أمسح بعيني المكان بعيداً عن بائع الفطير والأطفال المتحلقين حول الكرة ومحل بقالة صغير، وأبي ها هو يتمشى ناحية المقهى المقابل.

لم أعرف ماذا كانت تصنع ياسمين في هذه الأوقات؟ هل انتهت من تصفيف شعر عروستها، أو أنها سألت عني فانزوت في غرفتها حزناً

على غيابي؟ لا أعلم إن كانت فكّرت في ذلك، قبل ذلك، أو حتى بعد ذلك. آخر ما لمحته وأنا خارج من الحارة كان رقصة عينيها التي انفلتت في الأفق البعيد. ودعت أشباحي، وتكورت على نفسي، وبكيت دون أن أجيد كتمان الصوت أو خفضه.

دار المفتاح داخل الباب، وانشقت عن باطنه جثة الضوء المرابي لساقين مسبوكتين داخل زوج من ذوي الكعوب البيضاء، تلثم الأرض في تلقائية من يعرف المكان، ولم أمنع عيني المرتكنة عند إحدى الزوايا من تشييد تمثال لها تمركز في ذاكرتي كعبةً ستطوف حولها -فيما بعد- الرؤى والكوابيس. تلتف أصابعها الدقيقة حول أزرار القميص فتطرحها خائبةً، كانت قدماها في حركة دائمة، لا ترتكز على رقعة، خطوتان للأمام، وخطوة للخلف، ونصف استدارة، وقميص يتطوح في الهواء، تدور على عقبيها، ويهوي القميص على وجهها، فترتمي على الكرسي، كانت تضحك، وتهتز بعنف، وتصفر بشفتيها في صخب، أدارت ظهرها في مواجهتي، واصطدم النور فجأة باللحم الأبيض، فارتوت بروح الله، اشرأبيت بعنقي، وكأنها اشتمت رائحتي، أو التماعة حدقتيَّ على المرآة، فتكهربت، وصفعت الباب بقوة.

مسحت عيني بطرف قميصي، واتكأت على حديد النافذة مراقباً ذلك الأب -المذكوك في الجلد السميك، المعجون بسمرة الشاي ورائحة السجائر- يطرقع أحجار الدومينو من غير رحمة.

- من أنت؟

التفتُّ على هفيف صوتها بأذني، وانفجر الضوء في المكان بغتةً، فاختل توازني، وتشبثت بأصابعي حول ساقيها البضتين، راحت أصابعها تداعب خصلات شعري الأسود المتحلق حول أذني، لطالما اعتنت أمي

به، كانت تمشطه بانتظام، وتنفق عليه قطرات الزيوت، ولطالما صرخ أبي في وجهها: أريده رجلاً! وامتدّ رأسي برفق بين فخذيها، واشتممت رائحةً لم أعلم لها اسماً من قبل...

- أين بابا؟

واستدرت لأشير لذلك الشخص القابع عند الناصية مغلفاً بالقميص الرمادي بارزاً من بين دخان الشيشة، ولاحظت سكوناً غريباً يعاود الظهور مجدداً، فتراجعت برأسي إلى الخلف قليلاً، كانت عيناها تحلقان فوق عينيَّ، ومن مداعبة اضطراب مقحم هبط وجهها هبوطاً اضطرارياً، وغاصت شفتاي الصغيرتان داخل شفتيها، فكنت كما فراشة سقطت في بحر العسل، فلا هي غرقت ولا استطاعت أن تحلق مرة أخرى كما كانت!

في الصباح جذبني أبي من يدي، ونزلنا إلى الشوارع -التي تغص بالمارة والباصات المحشورة بكتل اللحم البشرية ودخان العوادم الذي يملأ المكان- بعدما قضيت ليلتي متكوماً بجانب الشباك، أراقب مشاجرات أهل الحارة التي كثيراً ما تقوم بلا أي مبرر ولا تهدأ، منتظراً عودة الأب الذي وصل في ساعة متأخرة، أخرجَ من دولاب المكتب بطانيةً فرشها على الأرض، ودعاني لأنام بجواره، لكنني فضّلت أن أبقى مراقباً للكتل الخرسانية وهي تغط تدريجياً في النعاس.

في المحطة كنا ننافس الزحام الذي طوق ميدان المحطة، وأصاب الطريق بشلل مروري. كانت أجساد الناس تغصّ داخل المحطة، وعلى الرصيف الذي ينبض باللحم الذي وقف ينتظر من بعيد القطار اللاهث نحونا سألت أبي: هل هذا هو قطارنا يا أبي الذي سيأخذنا نحو الصعيد؟

لم يجبني، كان فقط يركض، وهو يشدني من معصمي، نتخلل بين أجساد الناس بصعوبة والصدمات من هنا وهناك. بدأ يتسرب لأنفي خليط متنوع من عرق بني آدم وشعرت بصعوبة في التنفس.

في صيف 1970م

فجأةً علا هدير الناس عند وصول القطار، بأقل من نصف دقيقة كانوا يتكالبون على صاحب الجسد الضخم الذي خرج من الشرفة ملوحاً، يتكالب على لمس يده الرجال والنساء، كان الطفل الأسمر يركض بقوة، وتشبث بقدمي أخته، امرأة فارعة الطول، أخذ يشد عباءتها حتى انتبهت له، ورفعته على كتفيها، وأخذا يلوحان من بعيد للقطار الماضي نحو البعيد، ورحل الرجل دون أن يروا شيئاً من ملامحه، رحل ولم يعلموا أنه لن يعود أبداً، كأنه من الحلم أتى، وكالسحر اختفى.

وقف أبي عند ناصية قهوة في باب اللوق يسلم على شخص لا أعرفه، تدريجياً انفلتت يدي من قبضته، ورحت أهرول بعيدًا، دائمًا ما يزوغ بصري، وتتنجح أشياء حولي في جذب انتباهي، عبرت الشارع، ووقفت أمام زجاج محل متوسط الحجم، أرتوي ببهاء تلك الآلات الموسيقية التي تزين واجهة العرض في حضور جلي، لاشيء يضاهي ذلك البيانو الراسخ في الجوار، كنت دائماً أتساءل هل بوسع هذه التجميعات الخشبية أن تكون ذات نفع في زمن صارت فيه الموسيقا تبث من كتل السيارات الحديدية، ومن الشقوق المعدنية في أجهزة الكومبيوتر والموبايل؟

كان بالداخل شاب أنيق جالس إلى البيانو يعزف عليه لحناً ما، ثم سرعان ما نهض، وأغلق لوح المفاتيح، وحيا صاحب المحل وهو يبتسم مشيراً إلى البيانو وانصرف، يتجه التاجر البدين نحوي بنظرات غاضبة

وهو ينفث كلمات لم أنتظر حتى أتبينها، وأخذت في الركض مبتعداً أتخلل زحام الناس الوافدة، وقفت على الناصية لحظةً أحاول تذكر المكان الذي تركت فيه يد أبي، من بعيد يتعالى صوت هدير وهتافات كثيرة، لمحت في زقاق يقسم الشارع إلى نصفين ولدين يكبراني قليلاً يلهوان بحقيبة فتاة أخذت تسبهم وهي تحاول الإمساك بهم، لكنهما كانا خفيفي الحركة يركضان ساخرين منها، اتجهت نحوهما، وعندما رأياني ركضا بسرعة، وتركا الحقيبة على الأرض، والفتاة التقطت الحقيبة في سرعة خاطفة واختفت، توقفت للحظة دون أن أدري ما هذا السكون؟ ثم فجأة تعالى الهدير، واقترب جمع من الناس يهرعون بشدة من الخوف، وصوت طلقات شق هدوء السماء، والغازات المسيلة للدموع عبقت المكان، واستولت على شاشة الرؤية لدي ففقدت البصر، وتوقفت تطوحني أقدام المارة يمينا ويساراً، حتى سقطت على وجهي ومن جديد نهضت، ثم سقطت على ظهري، ثم نهضت مرة أخرى وأنا لا أرى شيئاً، ثم هممت بالصراخ دون أن أسمع نفسي، كان الجميع يصرخون، الجميع يركضون، وأنا لا أعرف إن كنت تحركت من نقطتي أم لا؟ حتى التقطتني يد بسرعة من تحت إبطي، ورفعتني عن الأرض قليلاً، ضم رأسي إلى صدره، وأخذ يركض بي سريعاً...

التقطتني يد؟

أو هكذا خيل إلي...

وكطلقة الرصاص تحولت كل الألوان إلى ظلام دامس.

يفتح باب الغرفة المتخمة بفوضى الملابس و الأوراق المبعثرة والكتب الملقاة في كل مكان، يلقي الأب بقسمات وجهه الجامدة نظرةً يتدلى الحزن منها بصعوبة ثم يغلق الباب مرة أخرى، ويرحل جاذباً البنتين

الصغيرتين تحت كتفيه، وتتبعهم الأم حاملةً حقيبتين صغيرتين، يغلقون باب الشقة خلفهم، ويرحلون.

في الغرفة ظلام لا يسمح بمجرد الرؤية، لكن أبواب الدولاب ستفتح في رفق، ويخرج منها جسد طويل يتناسق مع عرض كتفيه وشعره المنكوش، يتلفت حوله في اضطراب، يبحث عن شيء ما وسط هذه العتمة لكن... لا جدوى.

- الصدى -

«إيه اللي إنتي عملتيه ده يا أميرة؟».

سيقولها الأسمر الذي أخرجها للتو قبل أن يعيدها مرة أخرى إلى الكيس وسط ترصد زبائن القهوة لها، بكل الجدية والصرامة سينفض الجملة في وجهها وهو يتفصد عرقاً، ويشعر باهتزاز المكان من حوله، وكأن زلزالاً ضرب قلبه ضربةً جابت كل ما حولها.

«أميرة أميرة أمييرررررررة..».

وفي لحظة دخول أخيه إلى غرفته ليسأله إن قال شيئاً نفى هو ذلك وتحت الغطاء اختفى...

«أنا خارج، سلام...».

في الحمام اتكأ الأسمر بجانب المرحاض، ومدد القدمين البدينتين، وبكى...

«بتحب فيا إيه يا محمد؟».

وأشارت بسبابتها إلى.. فقال «بلى».

بخار الماء غطى المكان، وداعب جلده السميك، على صهد المرآة كتب «لا شيء يهم»، ثم مسحها، وأخذت ابتسامته الباهتة تفرّج الشفتين الغليظتين عن أسنان مصفرة في تناسق زجاجات الفودكا... وبأصابعه يصفف الشعر الأسود الذي يغطي أذنيه، ويلتف قليلاً حول رقبته.

«بزمتك بقى عبد الحليم كان أمور زيي كده؟».

أخذت يداه تنتشران في كل جيوبه، لاشيء سوى علكة بالعسل وولاعة قديمة، العادة التي استوطنته كلما تأهب للخروج.

- «الولاعة دي جاتلي هدية من واحدة صديقتي».

بضع أوراق التقويم التي اعتاد قطفها حشرها في جيبه، ارتدى جاكيت الجلد السنجابي اللون.

- «انتي عبيطة يا ماما الجاكيت ده من إلنجهام».

كتاب متوسط الحجم في الجيب الداخلي للجاكت.

- «جالي حتة طرد امبارح، تحفة، آخر ديوان لإيمان مرسال بإهداء شخصي منها».

تتحسس يده القطع الطولي على جيب الجاكت، فيحاول أن يضم الجانبين لبعضهما ولكن لا أمل...

الغرفة لها جداران يحويان السريرين والمكتب، الثالث لدولاب ضخم يضم ملابسه وكتبه والأقلام والفرشات واللوحات التي تخص أخيه، والرابع هو شرفة كبيرة تطل على بيوت الشارع الضيق. الشرفة التي طالما اختلى فيها بفنجان الشاي والسيجارة الكيلوباترا والتي منها يسترق النظرات للطفلة التي ينعت ثمارها باكراً، وتقطرت أنوثتها على ثيابها بشكل مفاجئ، ينادونها مريم، لأمها الحق في أن تخبئها تحت

ذراعيها، وتسير خلفها كعسكري مراقبة، لتردع كل العيون والأفواه المفتوحة لالتهامها، كان يشاهد دروس العلاقة الحميمة على يد الأستاذة (كيت ونسلت) عندما ركضت مريم بسرعة تغلق الشباك وهي شبه عارية تماماً خارجةً من الحمام لتوها، وعندما انكفأت على وجهها عند مدخل الباب لأول مرة تلبس فيها الكعب العالي انحسر فستانها عن ساقيها الملفوفتين والأرداف القادمة في الطريق.

«سماري وسمارك واحد، وقلبي وعقلك اتنين، أنتي يا بت هتدخلي موسوعة جينيس لأجمل مؤخرة.»

في درج المكتب ترقد ثلاث سجائر «إل إم» حصل عليها مصادفة من أحد الشباب الذين يلتصقون به في المقاهي، ليستمعوا شعره ويتعلموا منه.

«عيب كل اللي بتعمله ده يا جمال!».

«عيب إيه بس يا أستاذ محمد؟ ده أنت خيرك علينا برضه».

في سره:

«ربنا يسامحك يا جمال... يعني أتصرف إزاي أنا دلوقت؟!».

يسير في الشارع موارباً في قسماته قدر ما يستطيع، الهموم هبطت عليه قضاءً، عيناه تهرعان إلى رصيف كل حانوت أو صندوق قمامة لعله يجد... لكن لا شيء يفيد.

وسط الطريق تباطأ قليلاً... حتى لمحها أخيراً، منتفخة الأوداج، شامخة القوام، غلافها يعكس ضوء القمر، فتنعكس في عينيه لؤلؤة ثمينة، اتجه نحوها حذراً من الصبي الذي شرع بجانبها في ربط حذائه، كان بطيئاً لدرجة أثارت سخط أصدقائه المتحلقين حول الكرة ينتظرونه، وأخيراً سيضع ثروته في علبة فخمة تليق بها.

«خد اللبانة دي يا عسل».

يحاوطه الولد بنظرة شملته من أعلى لأسفل، ثم ابتسم في خبث وهو يقترب منه ليخطف العلكة، ويجري بعيداً...

«يا ابن الـــ..».

وتهشمت تحت قدميه...

«أخدت اللبانة منين دي؟».

«من العجل الأسود اللي هناك».

مشيراً إليه... فتتعالى ضحكات الصبيان، ويشرعون في اللعب، في سره يقول «لا شيء يهم» يضع يديه في جيب الجاكيت، ويسير متبختراً واضعاً إحدى السجائر خلف أذنه اليمنى، والأخرى خلف اليسرى، والثالثة علقها باحترافية ما بين شفتيه وهو يترنم بأبيات للحداد:

نورتي بيت الشعر يا أمورة

قالتلي ده انت اللي ولد أمور

يا طفل شايب في قماط دمور

خد المراية

بص شوف الوسامة

«إيه اللي أنتي عملتيه ده يا أميرة ؟».

مع صرخته لها من قلب المقهى، كان الناس يروحون، ويجيئون عليه باستغراب...

«وأنا اللي كنت فاكرك مثقفة ومتحضرة زينا؟!».

«وأنا اللي كنت فاكراك متدين وغيور على دينك؟!!».

هنا قهقه بصوت عال، وضرب المنضدة بيده بقوة جذبت أنظار كل من في المقهى...

«أنا مش متدين يا أميرة... أنا ملحد... ومن زمااااااااااااان قوي».

«يا خسارة».

لفظتها في مرارة، ورحلت تاركة حجابها وقفازاتها ومعطفها وقميصها والبنطلون الجينز، وورقة بيضاء كتب لها ذات مرة «لا شيء ينفع»... كل شيء تركته ورحلت... لملم الأشياء داخل الكيس، وأخذ يردد «لا شيء ينفع، لا شيء ينفع» وعلق السيجارة «الإل إم» بين شفتيه، وسار في خيلاء متجاهلاً كل العيون التي تتعلق به.

«ده إتجنن وبقى بيكلم نفسه».

«ده بقاله 3 سنين على كده».

لا شيء يهم، لا شيء ينفع، لا شيء يفيد.

- الحياةُ باتساع -

وكانت تحلم أن تركض على الأرض المفروشة بالحشائش والزهور، حافية تقفز، وتطول أصابعها السحاب...

كانت تحلم والحلم رؤية، تضم ركبتيها إلى الصدر ويدها ممدودة للدمية، تأتيها من أرض اللعب لتضمها، تخلصها من وحدة الحلم واتساع السرير، رغماً عنها نامت، ولما أتيتُ بالدمية كانت قد ماتت...

في الطريق إلى المستشفى مسترخياً في مقعد القيادة ويوسف إلى جواري متهاوياً، عيناه في السحاب شاردتان تجوبان السماء، وسرب الحمام بحركاته البهلوانية يهاجر من أرض إلى أرض، نهاجر معه... والسماء واحدة!

أتساءل إذا ما كان الأمر يستحق أن أعبر العالم كله كي أرى أي شخص؟ الجميع هنا لهم حياتهم الخاصة التي يعيشونها، ويلتقون بي على هامشها، خطواتي التي جابت أرض العالم. وتحلقنا حول أشجار الظلال، لاشيء يحتفظ بي في ذاكرته، أدركت في رائحة الحشائش ومد البحر تحت سيادة الليل أن هذه النجوم ليست نجومي، فهل كان لابد أن آتي؟

...

- هل يمكن لها أن تحتفل معنا بعامها العاشر بعد أيام يا دكتورة؟

- ربما، ومن يدري؟ فالحياة تتسع لكثيرين...

أدارت ظهرها، واختفت في زخم الناس المتقرفصين في ممر غرفة العناية المركزة، أبحث عن جواب ولا يفصل بيننا سوى باب، حتى لو عبرته فلا مزيد لأعرفه، لكن حولي كانت تتفشى رائحةً فهمت منها الكثير...

...

الطريق فارغ تماماً، لا أحد ينافس نجوم الليل ولا زمجرة الرياح الجريحة حولنا، سوى أنني لمحت شاباً ممزق الثياب ممدداً وقد لُطِّخَ وجهه بمزيج من الدم والتراب... «مجنون!!».

- عندما تندلع الحرب تنقلب الموازين... كل منا نزل ليدفن جثة ما، إننا لسنا أفضل منه حالاً.

هكذا قال يوسف وعيناه لم تفارقا الامتداد السماوي، فتحت الراديو على صوت طفيف، وتركت مئات الأصوات تسيل دون مراقبة أو تركيز...

...

– انتظر حتى يعود المسؤول عن الثلاجة إنه قريب من هنا...

نظرت بعينين تائهتين ثم أخرجت سيجارة من جيبي:

– أنت تعلم أن التظاهرات في كل مكان، لم يعد هناك أمان، ثم إنها طفلة، وأنت ترى الليل قد غلفنا، ولا مزيد من الانتظار حتى نرجع بها قبل الصباح...

ربت على كتفي دون أن ينظر إلي، طلب مني الانتظار، وتحرك هو إلى الخارج...

– إنني لم أدخن من قبل!

ثم أدار وجهه ناحيتي، وكأن المصباح فوق صلعته لم يُظهر منه سوى جبهته المدببة وجانب قاتم لا يمت بصلة للشقر أو أصحاب القامات القصيرة... على رصيف ساحة المستشفى قرّب وجهه من عود الثقاب ونحيب يتسلل في الخلف لامرأة منتقبة راح على إثره ينفث الدخان في نعومة دون أن يصدر عنه سوى حشرجة خفيفة، وكأنه كان منقطعاً عنها منذ فترة ليست بعيدة.

– ما آخر ما توصلوا إليه في شأن الذين يقتلون باستمرار على الطريق خلال هذه الأيام؟

سكت برهة، ركز خلالها النظر على المرأة وزوجها بلحيته وجلبابه القصير يغادران المستشفى، ثم قال:

– الخطأ ليس خطأ هذا أو ذاك، إنها كلها أوضاع وظروف حرب العصابات واختراق القوانين وسفك الدماء... ثم استأنف حديثه بصوت منخفض مقترباً من أذني: لكن من الذي أنشأ العصابات أولاً؟ من الذي أراد الحرب الأهلية؟

تجمد نظري تجاهه قليلاً، تاركاً الرياح تصفعني بما تحمل من رمال، ثم عدت للساحة الخالية دون أن ينطق أحدنا حرفاً آخر...

فقد بات واضحاً أنه خلال العامين الماضيين قد ارتكبت آثام وسرقات وجرائم قتل دون سبب... قليل فقط من الناس هم الذين ألقى بهم المستبدون على الطريق ليقضوا نحبهم، ثم ماذا؟ كيف سارت الأمور؟ فقد توقفت حالة الاستعداد للطوارئ، وصدقوا الطغاة السابقين الذين أصبحوا -الآن وبعد أن تزول الغمة، وتُحل الأزمة- يخرجون من البارات والفيلات، ويُهتف باسمهم في الميادين وأعلى منصات الإعلام والجوامع...

- تفضل يا أستاذ، لقد أتى معي ها هو...

قالها البواب الذي انتشلني من هذا السكون، فتحركت معه وأنا أفكر بيوسف الممدد في السيارة، لم يجاهد حتى يأتي إلى المشرحة، ويستلم طفلته المسكينة.

...

أمليت للرجل اسم الطفلة، فعقد يديه حول صدره، وتوقف برهة مردداً اسمها، ثم لوى شفتيه، واتخذ القرار متجها ناحية أحد الصناديق المغلقة، وفتحه، ثم سحبه إلى الخارج. ولأن للأطفال أجساد صغيرة كانت طفلتان تنامان معاً في صندوق واحد، إحداهما لا تجاوز حجم قبضة اليد، وكل منهما مغطاة بملاءة بيضاء...

روائح غريبة تنتشر حولي، كنت أظن أنني سأشتم رائحة الموت هنا، فقد كنت عازماً أنني لو وجدته فسوف أقسمه لنصفين، لكن كل الروائح هنا لا تحوي داخلها أثراً للموت، وفكرت أنني لا أستطيع أن أعرف رائحة الموت أصلاً، وبرغم ذلك أشعر بشيء يقتلني، سألني

الرجل عن الاسم مرة أخرة، وخشيت أن يطلب مني مهمة التعرف عليها، لأنني لم أرها سوى مرة واحدة، وأنا أعلم جيداً كم هي ضنينة محفوظات الذاكرة...

- ولي الأمر؟

أشرت بيدي إلى الخارج واهتز كتفاي من قلة الحيلة، فأطرق بنظره، وراح يجمع أوراقاً وهو يتبادل حديثاً مع مساعده الذي كان يفوقه بمترين في الطول، ويكرر بثقة «جثة»، وفكرت أنه هنا تمحى الأسماء دائماً، ولا يتبقى من الإنسان سوى قطع من اللحم وبعض الأحبار على الورق، وخلال سويعات يزول اللحم نهائياً، إذن فالمجد للأوراق...

فجأة كشف الرجل عن جزء من الغطاء، فظهرت بطن الطفلة «الجثة» مثبت عليها الاسم بشريط لاصق، نزعه وسألني عن الاسم مرة ثالثة متأكداً والرائحة قد ازدادت وأصبحت أغلالاً حول عنقي، حملها إلى الطاولة برفق خبير ماهر، ودون أن يلاحظ أن إحدى قدميها تدلت من تحت الملاءة، وقد ظهرت عليها آثار كدمات وبقع بنية كثيرة، سألني إذا ما أرادنا الغسل هنا؟ لكنني نفيت، وقلت له: فلننهي إجراءات التسليم على الفور...

سألني وهو ينزع الغطاء:

هل معك شيء لتلفها فيه لأن هذه الملاءة عهدة شخصية هنا؟ إنها تاريخ عريق، فقد لفت داخلها جثث المستشفى منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً!!

لم يكن معي شيئاً، فخلعت قميصي، وغطيتها به دون أن أنظر إليها، حملتها على ذراعي وأنا أركض بشكل غريب، كان الجسد بارداً جداً، وعند ارتطامي بأول دفقة هواء نقية شعرت برائحة شعرها الجاف،

تتدلى ضفيرتها من بين ذراعي وقد زينت في آخرها بدب وردي اللون يمسك جيتاراً...

مددتها على المقعد الخلفي للسيارة، وضعت الدمية التي اشتريتها لها بجوارها، غطيتهما معاً، واضطررت أن أقود الطريق كله بالفانلة الداخلية!

..

كانت سارة متأهبة للقاء يوسف منذ مدة، فمن ساعة أن غادرت الطفلة الوجود وكأن جزءاً من حياته قد فارقه للعدم وبلا عودة، وددت كثيراً الوقوف بجانبه، وأن أهون عليه شعوره بالحزن، لكن حتى ذلك لم أجد له طريقاً، وماذا تفيد الكلمات غير أنها تزيد الجرح عمقاً، وأن الحياة لن تبتسم في وجوهنا مرة أخرى... الحقيقة أن الحياة لا تبتسم أصلاً ولا تعبس، الحياة تلهو وتعبث، نحن أيضاً قادرين على ذلك..

عندما وصلنا إلى المطعم المتفق عليه، كانت سارة تنتظر في المدخل، لم تملك حينها سوى أنها ارتمت في أحضان يوسف بكل قوة، أطرقت إلى الأرض قليلا مبتسماً، ثم مدتْ يدها، وسلمتْ، وكانت تبتسم لي كمن يشكر الطبيب الذي ساعد روحه على الفكاك من قبضة العدم...

تركت لهما الطاولة يتحلقان حولها على راحتهما، تناوله الطعام في فمه، وتربت على يده، تهتز أمامه، وتنفلت منهما ضمن السكون ضحكة تبهر المكان، يرويان الكثير من الأحاديث، ويبدأ هو في الكلام كخبير بشؤون كل شيء وأي شيء، يبتسم ويشرق وجهه مع مداد الشمس النافذ عبر الزجاج...

في هذه اللحظة لم يذكرا أن هناك عالماً آخر وأناساً من حولهم تعيش وتموت، كانا أقرب مثلاً لدورة الطبيعة التي لا تهتم لأحد، يجهلان أن العالم هو دائماً كما هو لا يعرف المهادنة ولا النسيان، وأنه لن يتوقف عن الدوران أو إظهار اللامبالاة القاسية دائماً تجاه السعادة التي اكتشفاها للتو...

لقد رحلت الطفلة، وكأن رحيلها لا يخص أحداً سواي، رحلت، وتركتني لظلي الذي أبداً ما أراد إلا أن أكون مثله، هكذا قدر الكاتب دائماً أن يكون ظلاً لكل الكائنات لا أن يكون هو... فالعلاقات الإنسانية لا تحتاج لمبرر كي تنشأ، أنت إنسان وذلك وحده يكفي...

كلما شرعت في ربط أمتعتي سقط الحزام احتجاجاً، وكأنه يعلن أن الرحلة القادمة كما هي لن تحتمل شيئاً معي، وقد لا تحتملني بالأساس، كل الاحتمالات واردة، ولذلك قررت الرحيل دون جلبة، ولو حتى على أطراف الأصابع... كنت أود أن أبوح لك بالكثير عما بداخلي يا صديق، لكن حتى معك لا أستطيع ذلك!

ذات مرة على جزيرة ما

- لم أعد أقوى على مزيد من الحياة.

قالها ومات.

عندما تحلق أولاده الستة حوله، أخذوا ينظرون لبعضهم واجمين، وبعد دقائق من الصمت تقاسموا العمل حتى تمت تهيئته لرحيله الأخير، داخل صندوق من الخشب وضعوه، وفي حفرة لا يزيد طولها عن المترين كان من المفترض أن يستقر فيها آخر بقايا وجوده الذي قارب السبعين عاماً أو يزيد، لكن أحدهم قال: هل نسيتم وصية والدنا؟ لقد أوصى بأن ندفن جثته في جوف النهر!

حملوه على أكتافهم، وساروا به، وسرت خلفهم في الشارع المليء بدخان عوادم السيارات التي تنحت سطحه جيئة وذهاباً، مررنا من أمام محل امرأة زنجية تبيع زهوراً، عندما رأتنا من بعيد أحضرت زهرة نرجس ظلت واقفة بين قبضتيها حتى اقتربنا، ثم هرولت تمدد الزهرة على الصندوق برفق، وعادت مرة أخرى تشيعنا بنظراتها، كانت -على مايبدو- تشعر ببالغ الأسف. ظلت الشمس متوارية خلف تلال من السحب، تضن علينا بلحظة دفء، تقلل برودة المشاعر التي تصلبت، الدموع صارت جليداً راسخاً في عيون كل البشر، ولا ألف شمس أخرى قادرة على إذابته، صعدنا ربوة، ومررنا بحزام من الأشجار

التي تنافس الديناصورات في أعمارها، ثم وقفنا قليلاً وأخذوا يتلفتون حولهم، قال أحدهم: أخطأنا أننا سمعنا كلامك، لا نهر يمر من هنا!

ثم تدخل أكبرهم حتى لا يحتدم الموقف:

أنا أعرف طريقاً للنهر، لكن دعونا نعود من حيث جئنا.

حملوا الصندوق مرة أخرى، ومررنا بنفس الشارع، ولما رأتنا صاحبة محل الزهور، ركضت تأخذ الزهرة من فوق الصندوق، وبدلتها بزهرة أخرى، ثم عادت تقف أمام محلها. الأصوات هادئة في الشارع، ولا يكاد المارة يبصروننا حتى يطرقون رؤوسهم، ويتابعون السير، وظللنا نسير هكذا، حتى اقترب المغيب... لا ناس من حولنا ولا أضواء... جبال مترهلة الأطراف نصعدها في تريث وصمت، سائر أنا خلفهم، سيجارتي أدخنها، ولا أعلم إن كان دوري قد انتهى إلى هنا أم أنه من اللياقة أن أنتظر حتى يكمل الرجل رحلته الأخيرة بسلام؟

أنزلوا الصندوق على سطح الجبل، وتلفتوا حولهم، ثم قال أحدهم: إن الأنهار لا تمر بالجبال! فرد الأكبر مغتاظاً: أحمق، أنا أعرف ذلك لكنني جئت إلى هنا كي نستطيع رؤية البلدة من مكان مرتفع، فنعرف أين يقع النهر بالضبط.

أخذوا يتلفتون، ورحت أتكئ على صخرة قريبة أدخن سيجارة أخرى، «لا نهر هنا» قال أصغرهم، «لم يمر ببلادنا نهر من قبل، هكذا درسنا!».

انزعجوا جميعاً، وكذبوه حتى أنهم قالوا: غداً سنكون عرفنا مكان النهر بالظبط، وحتماً سيكون أبانا صادقاً، قال أقصرهم قامة: لقد تكسرت كتفاي من حمله، إنه ثقيل للغاية، لم أعرف أن للموتى كل هذا الثقل!

فابتهج الأكبر في خبث، وقال: حسناً، سنتركه هنا، وغداً سنعود ومعنا النهر.

وتركوه، وذهبوا... مع ذهابهم وذهاب الشمس حضر القمر، الذي لم يستطع -رغم حجمه- تبديد سيادة الظلام وسطوة الوحشة، وتساءلت إن كان لوجودي هنا الآن أي معنى؟

ما الذي سيجعلني أنتظر هنا حتى الصباح بجوار جثة لم يربطني بها أي شيء منذ أن كانت حية؟ فهل هناك رابطة بيننا وبين الأموات؟ الأحياء لا يتواصلون مع بعضهم، هذا ما عشته في عمري الذي أصبح على مشارف الأربعين دون أن يتواصل مع أي شخص، غير أنني اليوم وفي الصباح تحديداً عبرت الشارع بسرعة، وبسبب شيء ما لا أذكر ما هو التفت خلفي، فلمحت العجوز، تتلألأ شعيراته الفضية تحت الشمس، يقاوم انحناءة الظهر، ويحسب الخطوات بدقة حتى لا يتعثر عند عبور الشارع، يحاول ألا يخطأ، وفي الحقيقة إن العجائز نادراً ما يصيبون شيئاً، استند علي، وأوصلته إلى مدخل البيت دون أن نتبادل الكثير من الكلام الذي لم يتجاوز بضعة أسئلة تتضمن استفسارات عن ذلك الجزء الذي نسميه «الهوية الشخصية»، لكنني لم أوجه له سؤالاً واحداً، غير أنه -ونحن في مدخل العمارة- أخرج من جيبه مظروفاً أبيض، وسألني إن كان بإمكاني إيصاله لشخص لأهميته، ثم قال: احذر أن تتأخر، وتراخا جفنيه وحاجبيه تهدلا: أرجوك.

(تلتف الأصابع في رفق حول مقبضي الدولاب، ثم يحشر نفسه وسط الأشياء، ويبكي حتى تتجمع الدموع حوله، تتخلل أصابع قدميه، تقترب من فخذيه فيلتصقا أكثر من ركبتيه، يدفن رأسه بينهما، يتعالى المد، ويغمره، فيرتفع قليلاً، يتنصل منه تدريجياً شعره وشعيراته وشعوره، ولأن المياه عميقة، فالسطح لن يكون أبداً صافياً.)

إني أستند الآن إلى صندوق محشو باللحم البشري المعتق منذ قرابة نهار كامل، الليل يدفعني لأحسده على نعمة هذا الغطاء الخشبي الذي

يحميه من البرد، أشعر أن أصابعي قد تصلبت داخل الحذاء، ليتني كنت مكانه الآن.

– إن بيع المناديل في الجبل أفضل من المدينة، الأموات أكثر كرماً من الأحياء!

بدأت خيوط الشمس تفترش وجه ذلك الطفل الذي يتعامد بذراعيه أمامي، يثرثر كثيراً، ولم أكن بعد استعدت وعيي بالكامل، قال لي:

– لم يكن أبي شحاتاً قط... لكنه إذا ما شعر بإهانة يكون عنيفاً... كما فعل مع الشاب ذي السيارة البيضاء الفخمة... ألم تسمع بهذه الواقعة؟ ألست في الجبل هنا منذ مدة طويلة؟ حسناً حسناً، لقد هشّم أبي أنفه، وأحدث قطعاً في جمجمته بواسطة أحد الأحجار المترامية... قد تجده في طريقك وعليه بقايا قطرات من الدم.

يغمض عينيه، ويضحك بصوت عالٍ، رغم علو صوته فلا أثر يتركه على الصخور ولا الطيور ولا أي شيء، كلٌّ في حاله، كلٌّ في سلام، أشعلت سيجارة وكانت آخر ما في العلبة، صمت عن الحديث، وظلت عيناه تتحركان مع يدي، ترتفع إلى فمي فيرتفع معها، وتهبط إلى الأرض فيهبط معها، ناولته السيجارة، فالتقطها في سرور، أغمض عينيه، ثم نفث دخانها كخبير، وقال:

– أتعلم إن أبي ليس فقيراً.. لدينا الكثير من الأموال... سأخبرك سراً...

ناولني السيجارة، ثم اقترب من أذني، وتحولت ملامحه إلى الجدة والاهتمام وهو يقول:

– ذات يوم كانت أختي تبيع المناديل هنا، تحرش بها أحد الصبية الذين لا أعلم من أين يأتون، أمسكت به، وطرحته أرضاً، وعجنته

ضرباً، فرفسني، ونهض يجري بعيداً، ولما حاولت أن أتبعه، نادتني أختي في لهفة لكي أرى ما وجدتْ، فإذا بنا تحلقنا مندهشين من هذا الشق الذي ينبثق منه لمعان ذهبي غريب... بدأت بتكسير الأحجار، ونادت هي على أبي، ولما وصل كنت قد استخرجت تمثالاً ذهبياً أثرياً في طول ذراعي هذا، أخذه أبي مبتسماً على اتساع فمه، خبأه داخل صدريته، وانطلق عدواً...

ألم أقل لك إن أبي ليس فقيرا..

ناولته النفس الأخير من السيجارة، وقلت له:

– وماذا فعل أبوك بالتمثال؟

– بالتأكيد باعه...

– وأين هو الآن؟

شرب السيجارة كلها، وألقى بآخرها بعيداً:

– لا أعرف...

– لا أقصد التمثال، أقصد أبوك..

ابتسم، وهو ينهض:

– لا أعرف أيضاً...

ثم نظر في عيني بخبثٍ، وتضاءلت ابتسامته وأنا أسأله عن اسمه واسم أبوه، وقال:

– وهل سألتك أنا عن اسمك؟

تركني وهمّ بالرحيل، تتقافز قدميه الرفيعتين بين الصخور الجبلية الحادة وهو يصفر بفمه، ثم توقف على مسافة، وقال:

- أنت يا أحمق، أ تصدق أشياء لم تحدث بعد؟
ثم أخرج لسانه قبل أن يهرول سريعاً مختفياً عن ناظري:
- لقد كذبت عليك.

لقد ضقت بهذا الانتظار، وكأن الأولاد قد نسوا أباهم، أو قرروا أن ينسوه على مشارف الحلم بالنهر، لن يبرح مكانه، لكن قد يبرح خياله أزمنة وأماكن عديدة، أسير بين الناس في الشوارع وفي الطرقات، عيونهم تتعلق علي، وكأن الجميع يعلم بأنني أحمل وصية شخص مات بالأمس، أفرد ياقة معطفي، أخبئ وجهي داخلها، وأهرول تحت الامتداد السماوي اللانهائي، تبهت الشمس رويداً، وتبدأ الغيوم في ممارسة غوايتها القديمة.

قال لي أن أنتظر في المطعم الساعة الثانية بعد الظهر، ولا أعلم كم الساعة الآن، ولا أعرف هل أنشغل بالبحث عن الساعة أم بالركض تحت المطر الذي لا يهدأ أبداً.

وصلت إلى المطعم، كانت الساعة الثانية بالفعل، لكنهم رفضوا إدخالي إلا بعد نصف ساعة، تعجبت، ووقفت في الخارج تحت مظلة الباب الرئيسي للفندق، أراقب السماء وهي تفرغ كل لعابها على رؤوس كل هؤلاء الناس، الحياة اكتسبت لوناً ضبابياً، والهواء صار يصطك بالعظام، ولا فائدة.

مر أمامي طفل في العاشرة تقريباً، وقف أمامي ثم رفع رأسه إلي، وقال متوسلاً:
- هل تسمح أن أسمعك قصيدة؟

نظرت حولي في اندهاش ثم أشرت له أن يبدأ، أغمض عينيه، ثم فتح فمه على آخره، وآخذ يصرخ بعنف شديد، رغم عمق كلامه

إلا أنني لم أتبين حرفاً مما قال، أشرت له أن يتوقف، لكنه لم يستجب، وضعت أصابعي في أذني، وصرخت فيه بأن يتوقف عن الصراخ، لكن لم يستجب، كان الناس يمرون حولنا، ولا يعيرونا اهتماماً، لم أستطع احتمال المزيد، نظر إلي أحد المارة وكان يحمل شمسية، فسألني إن كنت أحتاج مساعدة، فأشرت إلى هذا الطفل المزعج، فأغلق شمسيته وصفعه على رأسه، فسكت الطفل، ثم رحل الرجل، واستدار الطفل خلفه، ومشى.

نظرت إلى الساعة المعلقة في مدخل المطعم، لازال هناك عشر دقائق، أخرجت المظروف الأبيض من جيبي أقلبه بين يدي، ولا أعلم ماذا يمكن أن يكون، مرت سيدتان بجواري على مشارف الخمسينيات، تقول إحداها للأخرى وهي تضحك في سخرية:

- وهل تظنين أن الإله نفسه بقادر على تغيير الماضي؟

لم أملك الكثير من الوقت كي أتبين باقي حديثهم، حيث سرعان ما اختفوا كسابقيهم وسط الزحام البشري، خرج مدير الفندق في حلته السوداء الأنيقة، وطلب مني الدخول، نظرت للساعة، وكان لا هناك حوالي الخمس دقائق حتى تصبح الثانية والنصف، أوصلني إلى طاولة فخمة مغطاة بملاءة حمراء، وأمامي شمعدان عليه خمس شموع غير مشعلة... وضع أمامي كأس ماء، ثم انصرف...

لا أحتمل المزيد من الوقت، وأنا أرى مطعماً لا يحوي زبائناً بالمرة، الإضاءة خافتة للغاية، فكرت أنه لو قرر الضيف الذي أنتظره أن يقرأ الرسالة التي معي فكيف سيكون الحال؟

لا أحد سيأتي، كنت أسمع كل دواخلي تنطق بذلك، فقررت أن أفتح المظروف، وأرى ما فيه... أمسكته في يدي، ونظرت إليه في تحفز للجهز

عليه، فإذا بطفل يقارب في العمر الطفل الذي كان يصرخ في الخارج يأتي مع النادل الأنيق، فيسحب له كرسياً، ويجلسه على المقعد المقابل لي.

سلمته الرسالة، فشقها، ثم طوى الورقة إلى نصفين، ووضعها أمامه، كان النصف المواجه لي فارغاً، استغللت بحثه عن قلم وقلبت النصف الآخر من الورقة فكان أيضاً فارغاً!!

انتبه لي، فرمقني بنظرة متجهمة، ووضع يده على الورقة.

وانهمك في الكتابة..

كل شيء قد انتهى عند ذلك الحد، نهضت من مكاني أدفن رأسي في ياقة معطفي، وأنا خارج من المطعم كانت الغيوم كثيفة.. وكان في الجوار لافتة تقول: رحلة مجانية إلى النهر..

منثورات صاحب البيادة

الغرفة الصغيرة... أصابها ارتجاج عنيف اهتزت على إثره الجدران، آنية الزهور سقطت، تهشمت، تبعثرت الأزهار، حوض السمك انفجر لافظاً كل ما بداخله، ومخلوق دالي الثائر هوى من بيضته، وعاد بسرعة، تلملمت الأزهار، والتحمت الآنية، وطارت لمكانها، والأسماك مع الماء تقهقرا إلى حوض الزجاج الملتئم الذي عاد لمكانه، على إثر ولوجه إلى الغرفة انعدم الارتجاج ،وأغلق الباب في هدوء.

توقف البنطال الأحمر والحذاء الأبيض اللامع لحظةً، خطوتان إلى الأمام، نظرة دائرية للمكان والأشياء الراقدة في سكون، خطوتان إلى الأمام، نظرة من أعلى إلى أسفل شملت الخزانة الخشبية، وأدركت خفوت الإضاءة في المكان، تلتف الأصابع الدقيقة كأسنان المشط حول مقبضي الخزانة التي أفرجت عن شعاع الشمس الدافئ والحديقة الصغيرة التي استقرت في عينيه وعلى شفتيه سرورًا وارتياحًا، لحظات وكان جالسًا على مقعده الزجاجي الصغير أمام العرض الذي يبهجه دائماً.

مشهد

صراخ الرجال والصبيان العقل[1] المصلوبين على جانبي الخزانة لقيام لقيام البعض منهم بالعمل بالسياط.

1 - عقلة الإصبع سمة مميزة للجنس الذي يعيش داخل حديقة السيد «أحمر».

- 1 -

تدفع السمراوات الخمس بزميلتهن غدراً (**يضع إحدى قدميه على الأخرى غير عابئ بالصراخ**) من فوق عشتهم على شجرة النخيل أو الأصح القول بأنها الشجرة النخلة، لتتبادل الضحكات مع بنات جنسها، بدون تفكير وفي حركة رشيقة أمالت الشقراء ذات الشعر النحاسي ظهرها إلى الخلف، تشكل بجسدها زاوية مستقيمة تماماً، مدت ذراعيها، وشدت رجليها، ورفرف الفستان حول خصرها حتى سقطت في مهارة في فنجان العسل الأبيض لتتفجر منه موجة عنيفة غرقت في إثرها المنضدة والنملتان المحلقتان حولها مما أثار انزعاجهما.

- 2 -

(يدس سيجارة بين شفتيه المتشققتين ومع لهيب قداحته ينصت)

السمروات يراقبن غريمتهن بسرور عندما أطلت برأسها، دهشت من مشهد النملتين المتحلقتين حولها يدخنان أصابع السكر المعتقة الفاخرة مما أصابها بشيء من الذعر، كان لابد لشيء أن يتغلب على شيء، وللسيادة الإنسانية هنا مقاييس، نهضت في هدوء، وقفت على حافة الفنجان وأخذت تدور في حركات سيركاوية دون أن تنظر لأحد، كان بقلبها أنها ستتماسك – دورة ثانية – وتتماسك – دورة ثالثة – وتتماسك لكنها كلما دارت خطوتين دفعت بها إحدى النملتين بسيجارها السكري إلى داخل الفنجان مرة أخرى، مما أصابها بشيء من الجزع، فأرسلت نظراتها إلى صديقها الفتى الأشقر الجميل الذي لم يعبأ بها، وانتصب على إحدى ذراعي المقاعد، وبدأ يتصرف في استجمام.

السمروات تسللن إلى المنضدة فرحين بمعشوقهم الوحيد، تنهض الشقراء، وتقف على حافة الفنجان، وتدور مرة أخرى وهي تنفخ في

ضيق، وما أن هبت إحدى النملتين لكي تعيدها إلى الفنجان بإصبع السكر حتى قفزت الشقراء قفزة لولبية استقرت بها على إصبع السكر، وركضت نحو عيني النملة مباشرة، وقفزت قفزة لولبية أخرى انتقلت بها إلى الزحلقة من على المقعد إلى المنضدة لتصطدم في كأس الماء مباشرة، فيتدحرج مصافحاً الأرض متصدعاً لحد ما. يسيل الماء جارفاً معه الشقراء إلى بر الأمان، وتبقى عيناها متعلقة على النملة الأخرى التي أمسكت بفتاها متأففة من فعلته، فألقته على المنضدة وسط السمراوات الخمس، وفي ضجر أطبقت عليهن الفنجان. وهنا ضحكت الشقراء للحظة، وللحظة أخرى توقفت عن الضحك، وفي انتقال سريع للعينين وارتعاشة في الكتفين، وارتجافة على الشفتين ناحيته، ناحية الدولاب بكت... وبكت كما لم تبكي من قبل، وكما لم تعتد رؤية صف البنادق المثبتة على حامل أفقي وأمام فوهة كل منها علق شخص ما من العقل من بني جنسها وعلى الزناد يقف شخص آخر. **(ومع انتهاء سيجارته وآخر نفثة دخان)** دوى الصوت جماعياً، وزال دخان السجائر ليحل دخان آخر من البارود ورائحة دم، [كفى] صرختها الشقراء، لكن كأنها لم تصرخ.

النهايـة

تحرك البنطال الأحمر، وأغلق الخزانة في قوة، وهنا اضطرب، وكأنه تزلزل، وعرق بغزارة عندما نظر بسرعة إلى السقف، هجم الظلام، حيث أغلق البنطال الأحمر الخزانة في قوة وهنا اضطرب وكأنه تزلزل وعرق بغزارة عندما نظر بسرعة إلى السقف، هجم الظلام حيث أغلق البنطال الأحمر الخزانة في قوة وهنا اضطرب وكأنه تزلزل وعرق بغزارة عندما نظر بسرعة إلى السقف... أممممممم... هجم الظلام... ههههههه... لأنني...

في حضرة الخوف

هو وانزواؤه هناك، بنفس الطريقة التي تضيعه وسط التفاصيل الكثيرة دائماً، هيجان الريح، نوم القمر خلف البنايات العتيقة، والفئران التي تمر بين فخذيه ومن فوق كتفيه وهو جالس القرفصاء لتنحشر داخل الشقوق الكثيرة في أجواف البيوت... انشغاله بالبحث عن أعقاب السجائر التائهة في زحمة الرمال، ومحاولاتها الأخيرة للنجاة من الأنهار التي يخلفها المارة والشحاذين ورائحة العطن التي تملأ المكان.

كان طفلاً رفرف بأقصى أمل له في التحليق، لأنه أكمل عامه الحادي عشر، وقال: أنا اليوم قادر لأسجن العالم في قبضتي.

يركض ناحية البحر بعينين متحديتين، وبأصابعه يرسم رقعة شطرنج على الشاطئ، ويقف في خانة الملك وقفة عسكرية، يطبق العالم بأسره تحت جفنيه في أربعة أعمدة تحمله.

....

....

....

لم أفق حينها إلا على موجة عنيفة بللتني وشمس حارقة، ولم أزل ثابتاً! للشطرنج لونان.. أبيض و أسود، والغريب أنني لم أفكر لأي لون ألعب!!

...

بداخل نفس كلٍّ منا دسائس، وربما هي ما دفعته اليوم ليتحرك في لحظة توقف الزمن كله خلالها، وحده : حيث السيارات توقفت عن الحركة، والبشر قوالب لحم متجمدة، شخبطات قلم، هذيان وموسيقى، ورياح تنسل داخل شقوق أي جدار فتقوضه، وحيد هو، وحوله مدينة عالية الأسوار مهجورة من الدفء، قد يقف قليلاً، ويدور حول نفسه، وقد يقسم تحت سماء أرجوانية -برحمة المطر، وأشجار الصفصاف- لعنةً على أشباه البشر هؤلاء، وقد يتذكر أنه كان طفلاً ذات يوم... يزعج بصراخه الكون بأسره.

شيء ما حدث!

إهداء إلى قاسم مسعد عليوة...

البداية...

يبدأ الفجر بنسج خيوطه على سطح المكتب المغلف بذرات التراب... سكون تام في الغرفة الخالية، ينفتح الباب في هدوء، ويدلف صاحب الحلة البيضاء والحذاء الأبيض اللامع... يرتمي بجسده على المقعد، وتمتد القدمان تشقان طبقات التراب من فوق المكتب لتستقرا على سطحه.

***

مع ازدياد لهيب الشمس أشعر أن قواي على وشك التبخر، أرتمي على الأرض، تتساقط قطرات العزم مني لتختلط برمال الصحراء، ما الذي أتى بي إلى هنا، أذكر أنني كنت أصنع شيئاً ما... ما هو... لماذا أصنعه؟! لا أذكر... أنساق وراء أفكاري دون أن أبالي بالحلة البيضاء التي تعانقت مع الرمال، أشعر بشيء يجثم على صدري، إنهم يتآمرون علي الآن، منذ زمن يتمنون التخلص مني، شيء من بعيد يلوح لي، يبدو وكأنه سور كبير... ربما تكون هذه ظاهرة السراب؟! لا أعتقد.

أسير في خطوات متثاقلة، عند مدخل السور عظام بعض الحيوانات، أصوات نعيق الغربان تتردد في المكان، إنها مقبرة قديمة طواها تراب

النسيان منذ زمن... أتجول بين الألواح الحجرية فيستوقفني أحد الألواح قد نقش عليه (نور الدين)، وكأنني أعرف هذا الاسم، لكن المعلومات في رأسي متداخلة والذاكرة مشوشة، لحظة! إنه أنا... أنا نور الدين!

الدنيا تدور من حولي، شيء ما حدث، أنا لست على ما يرام... ألمحها تتقدم ناحيتي بجسدها الأشقر الفتان الذي أحاصره بين ذراعي، وأضمه لي... عيناها العسليتان والشعر فاحم السواد الذي ينسدل على كتفيها كوشاح إمبراطوري... إنها هي بشفتيها التي طالما أقطرت منهما خمراً أسكرني حتى الثمالة، ابتعدي عني أيتها الملعونة فأنت سبب الضياع الذي أنا فيه... تتهاوى مني قطرات من الدموع على ذرات الرمال، أسحقها براحتي، أكور قطعة من الرمل ألقيها على اسمي... كلا أنا السبب... أنا الذي أحببتها... اشتريت كل شيء إلى أن جاءوا هم واشتروني، هؤلاء الذين يتآمرون علي الآن.

ألتقط فأساً ملقاة بجانبي، وأهوي بها على القبر الوهمي، لقد جاءوا إلي منذ مدة ليست طويلة، طلبوا مني خدمة لا أذكرها مقابل أية نقود أطلبها، عرف عني أنني مادي بشراهة، لكنني لم أكن كذلك، أشعر وكأن الفأس اصطدمت بشيء ما، تغوص أصابعي في الرمال بحركة هستيرية، أرفع ما استقر في يدي لأكشف عنه الغبار... لؤلؤة صغيرة تشع ضوءاً ضعيفاً... شيء ما حدث! أنا لا أذكرهم جيداً، ملامحهم مشوهة تتداخل في بعضها بطريقة معقدة... كانوا خمسة أعتقد ذلك، يخفت الضوء قليلاً... قليلاً حتى ينعدم تماماً... إنهم يتآمرون علي الآن!

أركض خارج هذا المكان، لابد أن أجدهم، تدور الدنيا من حولي، وأشعر أنني سأسقط... ألتقط أنفاسي بصعوبة، أغمض عيني، وأتحرك في هدوء، أحاول استجماع أي شيء يدلني عليهم، شعور الخيانة يستفحل

بداخلي... يبدأ السكون من حولي في التضاؤل، ويزداد الضجيج، مزيج من أصوات الناس ونداء الباعة وصراخ الأطفال، ثم تهدأ الأصوات، ويزداد حفيف الأشجار، أشعر بأرض غير مستوية تحتي... ثم... تنحرف قدمي فجأة... أشعر أنني أسقط من مكان مرتفع، ومع ذلك لا أفتح عيني... لا يزال جسدي يتقلب في الهواء، لقد طالت لحظة الارتطام... أفتح عيني لأرى ما هذا الارتفاع السحيق، فأجد جسدي يرتطم بالأرض... أشعر أن صدى تكسر عظامي يدوي في المكان المظلم، صوت أقدام تقترب ناحيتي، بالكاد أميز أجساد خمسة رجال يقفون حولي، يميلون علي... فينعكس ضوء خفيف على ثيابهم السوداء... حينها أكتشف أنني مصدر هذا الضوء الذي ينعكس على وجوه خمستهم... الذين عندما أطبقوا على عنقي كنت قد تبينت أنهم جميعاً أنا!

***

تبدأ الشمس في حزم أمتعتها من على سطح المكتب اللامع... ينفتح الباب في هدوء، ويدلف صاحب الحلة السوداء والحذاء الأسود... يرتمي بجسده على المقعد، وتمتد القدمان فوق المكتب لتستقرا على سطحه.

سيمفونية صمت

خروجك من بينهم بنفس الصلابة والقوة التي ظهرت بها منذ سنوات... وحيرتك الشديدة في تفهم أسباباً دفعتك لرحلتك الطويلة... إنها تشبه السحر في عوالم (Harry Potter)، أو حتمية القدر في (Knowing)، الصدمة الأليمة عند اكتشاف أن حياتنا ما هي إلا (Matrix)، هو ما يشعرك بالعجز أمام الشاشة الكبيرة... برغم أكياس الفشار واللب والفول السوداني... لا يمكنك أن تمنع إحساسك المتأرجح بأنك (الجوكر) مرة و(دراكولا) في مرات أخرى.

لنرتب المقطوعات، وليبدأ العازفون في انتظام:

سي لا صول فا مي فا فا دو فا فا دو...

آيات الكرسي تتردد على شفتيه وهو يمر بين زجاجات البيرة والويسكي، يركن إلى الطاولة ونظره منتظم على أفخاذها التي تتراقص بين الرجال، يقف أمامه النادل... يفهم من حركة شفتيه أنه يخاطبه، فيمط شفتيه، ويتحدث دون أن يسمع شيئاً... لا شيء في أذنه سوى طرقعة جلدها وآهاتها الناعمة و.. صرير الريح.

عندما عاد إليه النادل ليضع أمامه زجاجة من البيرة –بابتسامة تطفو على شفتيه– لم يسمع ما رتله من ترنيمات الموت... ظن أنه يحييه فبادله

التحية، عندما نظرت إليه اضطرب اهتزازها، واغرورقت عيناها... مع تدفق البيرة إلى كأسه، وبدأت تنسل خيوطها وتتفكك وتترهل حتى تبعثرت تماماً خليطاً من خيوط حمراء وبيضاء وسوداء.

ما الذي أضحكك... مصطفى كامل الذي يرقد على السرير ليمارس مصارعة السيقان الملكية ثم انسحابه بنفس الطريقة المضحكة ليتهاوى مشدوهًا إلى مقعده في آخر الغرفة... يتأمل أصابعه التي حافظت على عذريتها حتى دقائق... مرت السنوات، ابيض الشعر، ترهلت الملامح، تقوس الظهر و... الانتظار هنا ممنوع!

تلتف أصابعك حول مقود البنزين عازماً على الرحيل... مع تطاير خصلات الشعر وزخات المطر طار الموتوسيكل...

أصابعها بين ثدييها، تشق قميصها عن الجسد المرمري... وتسلمه إلى الأيدي الخشنة بعد إعطاء السماح بالمرور داخله بكل حرية... أمام عينيه الملتصقتين بالنافذة متلألئتين بآثار طردتها... وانكماشه بنفس الجزع إلى شجرة البرتقال... بقرار منهم انتهى العمر الافتراضي للشجرة فشرعوا في استئصالها اليوم... وهي لا تزال على السرير ملكية شرعية لكل الأيدي النابضة... أبيض شعرها، تساقطت أسنانها، وغاص عظمها في لحمها، وهي لا تزال تتضاحك مع إفراغ شحنات السعادة في جسدها.

هدّيء من سرعتك قليلاً، لقد قاربت الثمانين...

الفتاة البريئة التي جعلتك تقبلها إشفاقًا على حالتك، التفاف ذراعيها حول خصرك كي تساعدك على الاقتراب من الصنبور، ودعواتها المتكررة لتجلسا بجوار شجرة البرتقال وتشاركها ساندويتشات المربى... الفتاة التي ختمت بشفتيها النبقتين على شفتيك، قد نضجت

ثمارها، وقررت ألَّا تقطفها أنت بالذات.. طرحت كل الحب تحت قدميك، ورحلت... سرت في عكس اتجاهها، وعزمت أن تصل لها... ذات مرة قال لك المدرس أن الأرض دائرية... مرت السنوات... كذب المدرس... وخسرت التحدي.

120 كم / ساعة

وقوفهم في زيهم العسكري وسط نجومهم الذهبية -لم يشفع لهم- عندما طرت ورائهم، ففروا كالجرذان من أمامك... يذكرك ذلك بمعركتك المريرة عند تناول الدجاج المشوي بالشوكة والسكين... ورغبتك الملحة في فتح الباب الذي أغلقوه عليك منذ زمن وتشغيل الساعات الجديدة.

أيها المجنون عد لصوابك...

150 كم / ساعة

الطفلة التي تهتز في سرور -وهي تطبع قبلة على خد أبيها، وتركض بكل الفرحة التي في الدنيا للحصول على الشوكولاتة والاختباء داخل أحضان الأم السعيدة- توقفت في منتصف الطريق بشعرها الذهبي و عينيها الزرقاوتين تنتظر مصيرها، قلب الأم زادت نبضاته سبعة أو ثمانية أضعاف، والأب في ذهول من هيجان التراب وصرير الريح الذي يحمل لك ذكريات السجن، والجَلْد كل صباح، وجراح كلماتها عندما ارتميتَ في حضنها باكياً، وإصرارك على بناء القصر بطريقة شرعية أو غير..» لم تفكر، لم تحسبها جيداً، كدت تصيب ولكن أخطأت».. كلنا نخطيء وقد حان وقت الاختيار، تسقط دمعة صامتة من عيني الطفلة

وأصابعها تفلت فرحتها وآمالها.. في قلبه كان قرار واحد: لاذنب لها.. على بعد سنتيمترات منها.. قبضت يداه على الفرامل بكل قوة لتطير الدراجة النارية، وتؤدي عرض الشقلبة الهوائية، فيسقط هو على رأسه، و.. صرخة ملتاعة من الأم وهي تلقي حقيبتها والشوكولاتة تحت قدميها مع انهيار دموعها، والأب الذي لا يزال في صدمته يراجع ضباب الصورة ،وتلاشي الدراجة النارية بين طيات السراب، و الطفلة التي صارت عجيناً بشرياً!

العَالمُ لا ينتهي أبدًا

البنت التي تسللت ليلاً لتجمع الشمس في قوارير، وترشها على العتبات..

كانت نتاج مضاجعة فاترة لمريض كبد دخل في أعراض هذيانات ما قبل الغيبوبة في 18 أغسطس 1987م، وظن أن السمك يقلى على الحائط فوقف يمد يده محاولاً التقاطه دون جدوى، ضرب رأسه بالجدار ثم صرخ، ولما أتت الزوجة تطبطب على ظهره كانت منهارة جداً، تحاول ألا تبكي، ولكنها كانت قد سئمت حياتها، فنفخت في وجهه، وأخذ يهتز طرباً، ويتلوى، قبض على يدها، وأخذا يترنحا حتى غرفة النوم، نامت هي، وأدارت له ظهرها، أما هو فكان يلتصق بها، يداعب عانتها وهي نائمة ومدكوكة كشوال القطن، فلما زهقت، رفعت فخذها قليلاً، وبدأ جِماعَهما الذي استمر لمدة ساعتين تقريباً، استيقظت بعدها على دفء نهر البول الصغير الذي انساب منه وهو نائم، فقامت متأففة، اغتسلت، وهي تحت «الدش» نعست، ثم فتحت عينيها، ونظرت في المرآة، كانتا حمراوين، ووجهها منتفخاً عليه تجاعيد النوم التي ما تصيبها دائماً بالتعاسة، ذهبت إلى وظيفتها الحكومية التي تتقاضى عليها 36 جنيهاً كل شهر في تلك الأوقات مما كان يسمح لها هي وزوجها بأن يأكلا فرخة على الغداء مرة على الأكثر كل أسبوع، لكنها كانت تطبخ

أكلاً نباتياً له، وتنفرد هي بالفرخة وحدها في المطبخ، وفي ذلك اليوم كانت قد أعدت أرنباً للغداء، عندما عادت من العمل كان الناس قد جهزوا عربة كارو أمام مدخل البيت، كُوِّمت عليها ملاءات بيضاء كثيرة، تكشّف لها -عندما دخلت الشقة تبحث عنه ووجدت آثار بوله على حافة البلكونة وقد ظنها سريراً- أنه نام على سورها، ولأن الجو كان يبعث بنسائم باردة في صباح سماوي رقيق جعله ذلك يبتسم وهو نائم، استرخى وتقلب في انسجام، فسقط ومات..

وفي 13 مارس 1988 صُعقت الأم عندما أحضر لها الأطباء مولودها، وكشفت في لهفة عن أعضائه التناسلية، وصرخت (لا أحب البنات)، أغمى عليها، وتطلبت إفاقتها صفعةً من يد أب يمارس زراعة البطاطا منذ الثالثة من عمره، فتمزقت حلمة أذنها، وسقط منها قرط ذهبي كانت ترتديه منذ أن تزوجت، ولم تضع في أذنها أية أقراط بعد ذلك.

وفي شهر نوفمبر 1993 وكما اعتادت الأم أن تخلع حذائها عند دخول الشقة، داست قدمها على ثمرة بطاطا مقشرة على البلاط، ارتبكت، وسقطت على وجهها، وجلست بسبب ذلك أسبوعاً بدون عمل، بعد أن زعقت في البنت التي كانت تجمع أكوام البطاطا المقشرة، وتصنع لها عيوناً وأفواهاً، تؤدي بهم مسرحيات خيالية، وتجمع قشور البطاطا أمامها على الأرض وهي ممددة على بطنها، متعامدة بوجهها على كفيها، تمط رأسها، تتناول إحداها، وتبتسم.

وبعد مشاورات مع الأهل والأقارب كان أخذها إلى الطبيب شيئاً ضرورياً، كانت تنط في العيادة، وتخرج لسانها للطبيب الذي يكره الأطفال بصورة تجعله يتذكر طفولته اللعينة، ولذلك قال بأن البنت مصابة باضطراب عقلي، ونصح بحبسها في البيت، فلم تذهب إلى المدرسة أبداً...

بعد هذه الزيارة جلست الأم مكتئبة حزينة، تصب سخطها على نفسها، وكانت كلما تعرت تحت الدش، ونظرت إلى جسدها تبكي..

في 18 أغسطس 1995 وتحت شمس ثلجية تربعت الأم أمام قبر زوجها ممسكة بمصحف في يدها، كانت لا تجيد القراءة، لكنها أخذت تحدثه حديثاً لم يسمعه أحد، ونسيت البنت التي أخذت تلهو باصطياد نملة ونقلها من وسط السرب المتجه إلى شقوقه لتضعها على البسطة، فأكملت النملة تسلقهاعباءة الأم السوداء حتى رقبتها ولدغتها، وبصفعة تلقائية فقدت النملة حياتها مفعوصة تحت الكف الغليظة للأم، أخذت البنت تجمع الأحجار الصغيرة في جيبها، حتى رأت فراشة تطير على ارتفاع قريب فركضت خلفها، وعندما مدت ذراعيها لتمسكها سقطت على صبارة نبتت حديثاً، فتركت ندوباً في وجهها، والتفتت لها الأم، وسرَّت في نفسها ما يعتمل من حزن...

عندما أكملت البنت عامها العاشر، اتفق زملاء الأم أن يقيموا لها عيد ميلاد بسيط، وكان من بينهم رجل أعزب في التاسعة والأربعين يتودد لها كل صباح بعبارات التبجيل، ويمتدح كوب الشاي مدعياً أن لا أحد في الكون بأسره يعد له شاياً بمثل هذا المزاج (كاذب)، ورأت الأم في المرآة زحف التجاعيد، فنبتت في رأسها فكرة انتهت بها في الحمام تكتم تأوهاتها وهي تنتف الشعر من بين حاجبيها وحول فمها وتحت الأذنين، خرجت على صوت دق الباب من جار قصير مدكوك في بعضه كشطيرة لحم بلدي، له رأس زيتوني الشكل واللون، يشكو لها رمي الأحجار التي كسرت زجاج بلكونته، وأزعجته في ساعات راحته من العمل (موظف مرتشٍ).

تأسفت الأم، وراحت تنهر البنت التي مازالت تضحك وتضرب الأرض بقدميها من أثر المشهد الخرافي الذي رأته للرجل وهو غائص في كرش زوجته المتكورة على سرير ذي أربعة أعمدة نحاسية.

ضربتها بعنف، وأحكمت غلق الشبابيك، وحبستها في غرفتها، وحذرتها من أن تصدر أية جلبة، ولم تقدمها للضيوف الذين أبداً ما رأوها، وتحججت لهم بأنها تشبثت بجلباب جدها الذي أخذها في نزهة صغيرة، كانت فكرة اضطراب بنتها عقلياً تشعرها بالخجل (يا إلهي ماذا فعلت كي أنال كل هذا؟).

بعد ذلك الموقف كفت البنت عن الحركة، وراحت تحبو على ركبتيها حتى توسدت بطن أمها، وسلمت لها شعرها فأخذت تمشطه بعنف، كانت لا تصدر صوتاً، لكن دموعاً انحبست في مقلتيها، لما فرغت الأم من تصفيف شعرها، نهضت تربت على رأس أمها وهي مطأطئة للأرض، ويبدو أنها لم تكن تتحكم في يدها جيداً، فنهرتها مرةً أخرى لأنها أوجعتها، جعلها ذلك تبكي طوال الليل (لكنها لن تحبس صوتاً مرة أخرى).

صارت تخرج قبل آذان الفجر إلى البلكونة حافية تصرخ بصوت تتصدع له سحائب الليل، فيخرج الجيران يرقبون السرعة التي تشرق بها الشمس لاهثة، فتتبدد مملكة الليل السرمدي، وتتفرق جماعات السحاب لنتف صغيرة حتى تسكت البنت، وتكف عن الصراخ.

كانت تبتسم فيما بينها في خبث، بينما تجلس الأم أمام المرآة في ملامح متبلدة (لا مشاعر)، مازالت آثار النوم تظهر على وجهها، وتصيبها بالتعاسة، شكاوي الجيران التي عجت برأسها أحدثت تصدعاً في القشرة المخية مما أصابها ببعض البلاهة قبل أن تخرج إلى وظيفتها التي صارت تتقاضى عليها 136 جنيهاً مما يكفي أن تأكل فرخة كل أسبوع على الأكثر، لكنها صارت تفضل الوجبات النباتية، حيث صارت مؤشرات السمنة تزعجها بشكل يغيظها جداً، ضربت البنت، ونهرتها أن تقترب مرةً أخرى من الشبابيك، بعد أن أحكمت غلقها جيدًا.

كانت البنت تركض في الشقة مذعورة، تتلفت يميناً ويساراً، كأن هناك شخص يترصد لها، كانت تختبئ تحت حوض الحمام ووراء ستارة الصالون، كانت ترتعش كلما حك السجاد باطن قدمها.. تحاول ألا تضغط بثقلها عليه فيختنق.. كانت تضع الزجاجات الفارغة أسفل شرفتها مفتوحةً حتى إذا مرت الشمس ملأتها بأشعتها، لكنها كلما تعود لتغلق القوارير تجدها دافئة ومعتمة، كانت تخاف الوحدة كثيراً، عندما تطل من الشرفة –وتجد كل البيوت تغط في النعاس– تشعر بحزن يمزقها، وودت لو تتقاسم مع الشمس بعض الظلام..

في 17 أغسطس 2003 عادت الأم من عملها، وجدت الناس مشغولين برفع حصان عربة كارو تعثر في الطريق من ثقل الحمولة عليه، وكان قد افترش الأرض، ولم يقاوم حتى للنهوض، وعندما كانت تهم بفتح الباب الخارجي للبناء شعرت بسقوط قطرة على رأسها، نظرت للأعلى، وركضت مذعورة دون أن تشعر بانثناء كعب حذائها تحتها والذي كان كفيلاً بأن يسقطها من ثلاثة أدوار، ويرسلها بعيداً عن الدنيا لو فقدت توازنها وهي تصعد السلم مهرولة حتى تصل إلى الشرفة، كانت البنت تتمتم في غيبوبة كلمات غير مفهومة، ويسيل منها خيط بول دافىء يتخلل أعمدة البلكونة الحديدية..

لطمت الأم، وانهارت على الأرض تبكي بصراخ جعل أهل الشارع يحبسون شتائم في سرهم تارة، ويلفظونها من فوق شفاههم تارة أخرى وهم ينقلون البنت إلى المستشفى، كان نزيفاً بالمخ قد استشرى، وسيطر على مصادر الإدراك والرؤية لديها، دخلت في غيبوبة، وبعد سويعات ماتت..

عندما نهضت الأم من إغمائها في المستشفى مفزوعة، وجدت ملاكاً أبيضاً متسربلاً ببخور وحوله هالة من الوقار، تشبثت به (أين زوجي)؟

ربت على ظهرها، وقال: إن من حمل في قلبه دفء العالم لا يتيه، من أحب ألا يكون وحيداً فلن يكون، ستشاركه الطبيعة كلها التي لا بيت لتذهب إليه كالبشر الأنانيين، (أين ابنتي)؟ ربما مالت سحابة عليها فأخذتها بعيداً، وطارت، وربما نهض شارع ملآن بوجع أقدام الناس كلها ليتبادل معها حديثاً طويلاً، يحكي لها عن الشجر الذي غُرس في قلبه على مر العصور، وكيف كان جميلاً ومغرياً. عن بتلات الورد التي كانت تتراقص في الهواء، وتدور قبل أن تلثم سطحه، وتحط في رفق. عن الحب الذي كان يشعر به. وعن البشر الذين كنسوا سطحه، وقطعوا الأشجار، وألقوه وحيدًا وسط قاذوراتهم وفضلاتهم..

لاشيء سيزعج العالم بعد اليوم، ولن يضطر أحد منا أن يدير ظهره للآخر، ويلوي شفتيه امتعاضاً، ستنامين كما لم تنامي من قبل، وعندما تنهي جميع الأحلام وتستيقظين، ستجدين كل الأمور بخير..

اعترافاتٌ أخيرة قبل أن أكذب

مشهد

الشمس مصلوبة على جدران الأفق الرمادية

5:00 صباحاً

تطل دائرتان من شاشة الظلام، لا... بل كرتان صلبتان لهما عينان شريرتان... بدون أسئلة اقتربا مني، و... التفت الأغلال حول معصمي.

11:00 مساءً

لم تصدق عيناي منظره ممدداً على الأرض وقد سالت الدماء حوله، تجمدت أطرافي، وارتكزت عيناي على منظر واحد، وكأن الدنيا شريط سينمائي تعطل فجأةً، وتوقفت الصورة عن الحركة، بدأت زوبعة خفيفة تقتحم السكون، تلقي بأوراق كثيرة تحمل الأسماء المختلفة التي عُرِف بها... على جسده.

11:30 مساءً

تضطرب خطواتي في الشوارع التي تصدعت... وكأن زلزالاً عميقاً أصابها، الناس يسيرون تائهين مغيبين، ولو ألقيت نظرة علوية ستجد قطعاً من الشطرنج تترنح ثملة، وكأن الأمر برمته لوحة تشكيلية غابت ملامحها، وطمست تفاصيلها.

12:30 صباحاً

لم أشك مرة في وعيه وقدرته على... كلا بل شككت في ذلك، أذكر عندما طارت صينية الشاي ليهبط الفنجان أمامه، لا أزعم أنني رأيته يشرب شاياً، لكن للحظة ما أمسك الفنجان، للحظة ما اختفى، انقلب الفنجان على الطاولة، فلم ألمح سوى بضعة قطرات بنفسيجية هي كل ما تبقى.

1:15 صباحاً

كلا أنتم تكذبون.. لم أقل أنني رأيته، أنا ربما.. ربما أشعر بوجوده فقط.. أو أتعلم.. ربما أكون قد رأيته ذات مرة عندما تسلل إلى غرفتي لينثر بعضاً من شعيراته البيضاء على جدرانها التي استوطنتها الجذور الجيلاتينية السوداء، وتدلت منها خيوط سوداوية صغيرة، ثم أوصاني قبل أن أنام أن أردد بعضاً من التراتيل التي علمني إياها أبي في صغري.

2:00 صباحاً

لا أذكر شيئاً عما أقول.. لكنني أرى، ها هي شعيراته البيضاء قد بدأت تندمل مع الجذور السوداء، ولم يعد لها دور في إيقاف نموها، ولا تزال تسبب لي بعضاً من ألم.

3:15 صباحاً

وقفت في الشرفة منتظراً كالعادة، ولم يأت، هذا ما أكد لي حقيقة ما رأيته منذ ساعات، فقد اعتاد في هذا الوقت أن يهبط إلى الحارة عندما يبرق من أمامي شبح أبيض متوهج، أعلم أنه جاء ليتفقد رعيته.. ولكنه لم يأت.

4:30 صباحاً

اندفعت من غرفتي هارباً من أنّات الجذور السوداء المزعجة، هائماً على وجهي، نزعة من الوحشة طوقت أرجاء الظلام، حتى يداي لا أراهما.. فجأة توهجت كرة من اللهب أمام وجهي، للحظة خيل إلي أنني رأيتني، وللحظة أخرى أظلم كل شيء و..

6:00 صباحاً

في الغرفة الكبيرة التي ملئت بالمصورين والصحفيين، تمتد الأصابع البدينة لتسحب سيجارةً من على سطح المكتب المغطى بعلب الزاناكس وأقراص الفاليوم والآتيفان، في نظرة حازمة ولهجة صارمة:

– هل فعلاً رأيته مقتولاً؟!

حينها أحسست بـ(الإسبازمودايزبام)[1] قد بدأت تنتشر في عروقي، وفجأة.. أظلم وعيي تماماً.. وسقط لساني.

1- (الإسبازمودايزبام): مادة مهدئة تخفف من الانفعالات النفسية والسلوك الهيجاني لها تأثير قوي ضد القلق المرضي وقد يتحول الافراط في استخدامها الى إدمان.

مازالت الأقدام على الأرض

الوقوف جواره في وجه الشتاء هو معنى العالم بالنسبة لها، تداعب خصلات شعره المتحلقة حول رقبته، مد ذراعيه إلى سور الشرفة، تلتف أصابعه ببطء وهو يقلب عينيه في المدى المهدور بين الشمس والسحب المتناثرة على خط الأفق الممتد:

ذات يوم وفي مكان ما..

كان ولداً، وكانت بنتاً..

والمباني تميل عليه، والشوارع تقصد أن تتموج من تحته ليَتيه، الهواء يهرب منه، يحمله، يخنقه، يبعثره في الهواء.. لمحها هناك تتوسط حصاناً ومهرةً يتغازلان، تربت الزهور على ظهريهما، ولا تقول شيئاً.. ركض إليها، وقبل أن يرتمي في حضنها انكمشت، اخترقت صدره، وتقرفصت، ومن يومها وهو يجفف قلبه المبلول بدموع لا تجف.

خصلة من شعره بين إصبعيها، تتركها، وتضع يدها في منتصف صدره، تهبط رأسها على كتفه ببطء، احتكاك خدها مع كتفه الصلب يدغدغ زغباً في وجهها، فتغمض عينيها وتبتسم، بينما يتابع هو:

- من حينها لم يتساءل أين ذهبت البنت، واكتفى فقط بأن ينتظرها..

كأنها اكتشفت شيئاً صادماً، تنهد هو، فتساءلت:

- وأين ذهبت؟

- لست أدري، شيء ما أخبرها بأن عليها الرحيل، وهي تثق به..

أخذ نفساً عميقاً، ثم تراجع خطوة للخلف، فرفعت رأسها عن كتفه، وبقيت مكانها، اقترب، ضمها إليه، أغمضت عينيها.. وشم من شعرها رائحة راح فيها كلامه كأنه قادم من سفر بعيد:

- بالرغم من أنه صعب علي الاعتراف، لكن فرقت بيننا الحياة أكثر مما يفرق الموت.. نعم النساء أكثر شجاعة من الرجال، نحن بارعون فقط في الوقوع في الحب، في تأمل السماء، نحن نكتب الروايات، نبدأها.. وهن يغتلن الحكايات..

ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال:

هكذا هن النساء، يأتون ويرحلون، حتى وإن لم نستطع أن نعرف إلى أين يذهبون..

وضمها شتاء..

منذ سنوات بعيدة وقفت طفولته الواهنة أمام البحيرة التي تعلّم عندها كيف يكون ما هو عليه الآن، وقال لحمامة أخذت تدور في مسارات لا يراها، كلما قلّبها الهواء يميناً انضمت إلى دورانها حمامة أخرى يساراً:

عندما تتمددين على سريري تلك الليلة، سيتدلى القمر كعيني التي تختلس النظر إلى الفتيات أينما كن، ستتوجه أشعته الجنونية إليك، وتتراقص فوقك، ستفترشك.. وتكشفك، عندها سأقصمك إلى نصفين في مشهد احتفالي من الطبيعة بتأوهاتك، وقتها نكون قد انتصرنا

أنا.. والقمر المسكين.

صارت الحمامة سرباً، سرباً من الحمام يغزو السماء بحلقات تحاصر السحب والنجوم، سربًا من الحمام أخذ مقولته واختفى..

كان يكره الشتاء، ويجيد التربص لـقِطَّةٍ تقبض عليها أصابعه. يضمها إلى صدره، ويركض مخترقاً هواء بارداً يحاول أن يعيقه، يعبر مسام قميصه، يدغدغ جلده، ويفرق تماسك شعيرات إبطه، ومع ذلك يركض ويركض ويركض...

«الأم الوحيدة التي عرفتها هي دمعة.. دمعة لا تنفك تزورني من ليل إلى آخر لتعيد قليلاً من الدفء إلى وجهي الذي انتهكته صفعات الشتاء..».

في فجرٍ ما، في مساءٍ ما،
اجعَل أَلمَك قيثارةً،
واضحكْ ومُتْ[1]..

«لن أذهب قبل أن أحصل على تفسيرات، **يدير ظهره، يدير وجهه، يقلب عينيه في غمام السقف.** مابك تأخذين الأمور بهذه الطريقة؟ **تفتر عنها ابتسامة ساخرة، هو لايراها،** أنا فقط كنت بحاجة للحديث قليلاً، فكنت الشخص الذي فكرت أن بإمكانه الاستماع إلي. **ثم يلتفت إلى عينيها.** فيما مضى كانت بيننا قبلات وأحضان أتذكرين؟ لكن الآن أنا لا أريد سوى الحديث معك ليس أكثر. **ثم يلحظ تحلق الطيور في السماء، كانت ساعة للغروب، وكان القمر طالعاً من قلب شمس برتقالية.** لقد كانت تجربتي الأولى، أتعرفين ماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟».

1- Kostas Karyotakys (Greece)

«أنت لاتفكر سوى بنفسك وفقط. **واقتربت كمن على وشك أن يصرخ في أذنه،** أنت أناني، **ترفع صوتها وتحرك يدها في استهانة،** لأنك حضنتني أو قبلتني تظن أن لك الحق في مطاردتي طالباً تفسيرات؟ أية تفسيرات؟ أنت حتى لا تعرف كيف تُقَبل الأنثى، مازال أمامك الكثير لتتعلمه يا فتى، فابقَ كما أنت ماضٍ أو حقير. **وتوجهت نحو الباب وصفعته خلفها..»**.

كان كل مايريده بعد كل هذا كل ما أريده لك هو أن تعاني مثلما أعاني، **لقد رأى قلبها وكان يريده** أريد القلب الذي في صدرك لأشعر لعلك تموتين، أتمنى أن تموتي أينما تكونين. **وأمضى ليلة بعدها تخلى عن كل أوهامه** ذلك لأنه ليس لأحد في العالم سأعطي قلبي..

وسلموا لي الحب حتى أقتله،

اقبضوا على الضعف الذي أظهرته،

فلا أحد يستحق أن يحتفظ به..

أنتَ الآن لاتمثل لي شيئاً..

هذه قصة تحدث كثيراً، من حسن حظ الفتى أنه ساكن في الحكاية، ذلك أنه كلما ألقى بنفسه في النهر، أغمض عينيه وأرخى أطرافه، كان جسمه يطفو من جديد فوق السطح، ظل هكذا طوال اليوم والناس يمرون في الصباح والمساء ينظرون إليه، ويضحكون، لأن جسده كان يجيد السباحة... هكذا إلى أن جاء مساء فكتب قصيدة، ثم أطلق الرصاص على رأسه، ومات!

يتساءل الطفل:

– لماذا يا أبي؟

- لماذا ماذا؟ لماذا مات؟

- كلا يا أبي، أقصد لماذا كتب قصيدة؟ لماذا لم يكتب ليدعو الله حتى لا يعذبه..

تفاجأ قليلاً ثم افتر ثغره عن ابتسامة قلقة:

- ومن قال لك أنها ليست كذلك؟

- وهل الله يقرأ القصائد يا أبي؟

- حتماً يا بني الله يقرأ القصائد.. ما الغريب في ذلك؟

- أنا لا أقرأ القصائد يا أبي، ولا أمي ولا أختي ولا حتى خالتي..

كأنه أفاق من سبات عميق على صدى جملته:

- «**أنت وحدك يا أبي من يقرأ القصائد**»، هل كتبها كي تقرأها أنت؟

وكمن يرى المستقبل والماضي في آن واحد:

- ربما، ولما لا، كتبها كي أقرأها أنا..

- وماذا حدث بعد أن قرأتها؟

في مساء ما كان الجميع يحتفل بسقوط الطغاة، كانت زجاجات البيرة تفرغ بسرعة، وتترنح في الصناديق، وعلى قارعة الطريق هناك كان صبي أراد دوماً أن يعرف.. ماذا يدور وراء الجدران، ووراء كل هذه البيوت؟ تمنى أن يخترقها كلها ويجوب دواخلها على راحته، كذبابة تطن، تئز، تطير، وتظل دوماً في حالة مطاردة، بل كريح لا مرئية تلسع وقت أن أرادت وتفصح عن مجيئها وقت أن أرادت، تدور، تجوب، تزمجر وقت أن أرادت.. وقف في قلب الشارع، أغمض عينيه مع ابتسامة خبيثة، شغف ورغبة، والمجهول صار الملاذ المنتظر منذ سنين، فرد جناحيه، رفع رأسه إلى السماء، وفتح فمه يهم بالصراخ لكن صرخته لم تكد تخرج حتى عادت مرة أخرى إلى حلقه، وغرقت في المطر الذي ملأ جوفه..

هز رأسه في محاولة للانتباه، ثم نظر له بحنو وجزع مطمور وراء عينيه، وقال مبتسماً:

- لقد تأخرت على موعد نومك...

وأخذه من يده، رفعه على كتفه وأصابعه تدغدغه، والولد يضحك في حبور، ويرفس بقدميه، حتى دخل الغرفة وألقاه بجانب أخته التي كانت تتظاهر النوم، أزاحت يديها عن وجهها، وبمجرد ما أن أشعل الأب النور صرخت لتفاجئهما وهي تضحك فضحكوا جميعاً، وتمدد الطفلان تحت البطانية كميت تمدد في صندوقه لكن روحه مازالت تحلم بالنهوض، مسح على جبينهما، ثم قال في نبرة مسرحية: من سيستيقظ مبكراً سيحصل على هدية نهاية اليوم.

صفقت البنت دلالة على الإعجاب، وفكر وهو خارج من غرفتيهما «ماذا لو توقف الزمن قليلاً متأملنا، متأملاً ذلك الضعف وتلك الغلبة التي فينا إذ أتت لحظة نكون فيها سعداء؟ ترى هل يغير ذلك شيئاً»؟

كان في الماضي طريق يفصل الماء عن اليابسة ويمتد إلى أن يصل بين الضفتين، سراباً ضخماً يطل الجميع من عليه، علينا.. نحن القابعون بعيداً هناك.. قابعون عميقاً جداً في تلك المدن الصغيرة التي لا تظهر على الشاشات، مدن لا تدخلها الكاميرات، ولا يمكن رؤيتها، مدن السير فيها بالحدس فقط.. كلما كنت صادقاً كلما كنت أقرب..

كل مدينة مهما انعدم براحها تظل متسعة لشخص واحد فقط.. هو ذلك النائم هناك تحت شجرة الجميز بعد أن أضناه التعب من عدِّ السراب..

كان يتساءل كثيراً في الشتاء، وفي الصيف يتمدد فوق بقايا السور الصامدة ضد السقوط، على يساره شارع مزدحم، وعلى يمينه مجمع

نفايات، كان ينظر إلى السماء «اللغز هو أنا»، هكذا فكر الصبي، وفكر أنه لو فاز بقبلة هذا الصيف، سيكتشف الشتاء القادم اكتشافاً عظيماً لم يصل له أحدُ من قبل..

مثلُ كلِّ النهايات

مثل كل البدايات؛ ينكمش الغطاء على القدمين المضمومتين إلى الصدر ورأسها المحشور بين وسادتين، تصدِّر مؤخرتها لكل الاحتمالات البعيدة لوصول خيوط الشمس عبر النافذة... عبر طائر هام على رائحة دودة سكنت أحد أغصان الشجرة الكبيرة التي تنافس الحياة عبر الزجاج.

لاشيء سيوقف الطفل -الذي ركن إلى جذع الشجرة يتحسس أصابعه النافرة من الحذاء، يدفن رأسه بين ركبتيه على الملابس المبللة ببقايا كيس اللبن الذي في يده- عن البكاء.

من مذكرات كاتب خط في بدايتها: أخيراً قد وجدت لغتي. فاضت روحه دون أن يشعر، فصارت كوناً تتعثر فيه التفاصيل والجزيئات ليحافظ كل منها على ذاتية الآخر...

«أيتها الرياح رفقاً بقاطني التراب، رفقًا بقطيرات الندى على أوراق الأشجار، رفقًا بحروف شاعر خطَّها لحظة الاحتضار».

مثل كل النهايات: ستفقد النخلة رغماً عنها بعضاً من تمرها على الأرض لتدوسه قدم طفل حافٍ فيتأذى، ويغضب، يلتقط إحداها ويلقي بها إلى.. لا نقطة محددة.

مثل كل النهايات: ستعطي النملة الملكة إشارة التحرك للقطيع بخزين الشتاء، لكن قد يعوقهم للأبد ارتطام جسد شاعر أفنى عمراً يطارد المفردات.

فغفل..

ونسي..

وسقط من قمة عالية.

مثل كل مرة لم يقصد بها البهلوان أن يكون فقط مضحكًا..

أو.. لم تقصد البنت التي احتضنت الفتى عند النهر أن تقع في غرامه..

ولم تقصد الجدة العجوز -المتربعة فوق المصطبة تحك رأسها بحثاً عن حكاية لم ترو بعد..- أن تكون الحكاية مملة..

ومثل كل النهايات..

تنسى كل الحكايات..

وينسى الكاتب الكبير في كل مرة جزء منه..

فيتوقف عن الكتابة..

ويعاود البحث عنه..

الفهرس